

المسحاة

مجلة

المجلد الثالث عشر
الجزء الأول



إهداء من

الجديد

تابعوا ...

طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر



WWW.ALUKAH.NET

المجلد الثالث عشر

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لنشرها

الشيخ محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

مصر — الخمس سلخ الحرم سنة ١٣٢٨ — ١٠ فبراير (شباط) سنة ١٢٨٥ هـ ١٩١٠ م

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صحيحاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية ثلاثة ريالات ونصف وفي الخارج ٢٠ فرنكاً
و١٧ شلماً في الهند و٨ روابل في روسيا والدفع سلفاً

الطبعة الاولى

(حقوق إعادة الطبع والترجمة لكل أو البعض محفوظة للنشر في المجلة)

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر

فاتحة السنة الثالثة عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعلنا أمة التوحيد ، وجعل ديننا دين التوحيد ،
وسياستنا سياسة التوحيد ، وأعز من استقاموا منا على التوحيد ، وأذل من
انحرف عن محبة التوحيد ، ليعيدنا كما بدأنا إلى التوحيد ، أنه هو يهدي
ويُعِيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعَالٌ لما يُريد *
والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسوله ، وصفوته من خلقه ،
الذي بعثه بتوحيد الألوهية ، ليحرر الخلق من رق العبودية ، للعوالم السماوية
أو الأرضية ، وبتوحيد الربوبية ، ليعتقهم من رق التقاليد الدينية ، التي ألحقها
رؤساء الأديان بالشرائع الإلهية ، وبتوحيد السياسة ليكون الشعوب والقبائل
أمة واحدة ، تضمها شريعة عادلة واحدة ، وتعارف بلغة واحدة ، ليطلقهم من
قيود الحكومة الشخصية الجائرة ، ويفكهم من أغلال العصبية الجنسية الخاسرة
فاهتدي بكتابه العقلاء المستقلون ، وضل به السفهاء المقلدون ، فمن يتابعه
المؤمنون ، وذل باعراضهم المعرضون ، وأنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * وأوجملناه قراءاً أعجمياً قالوا
لولا فصاحت آياته الأعجمي وعربي * قل هؤلاء الذين آمنوا هدى وشفاعة ، والذين
لا يؤمنون في آذانهم وقر * وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد *

وبعد فقدم للمنار اثني عشر عاما، كان له منها اثني عشر سفرا كبيرا فهي في هذه الامة كنعباء بني اسرائيل، تجوب الاقطار داعية الى ذلك التوحيد، مذكرة آخرها بما صلح به أولها، وانها كالطرد بما كان الخير الكثير في آخرها، وقد وعدنا الله تعالى بالاستغلاف في الارض، واظهار دينها على الدين كله، فلا يندر في الاسلام اليائسون، ومن يفتن من رحمة ربه الا القوم الضالون* وهو الذي ينزل الفيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد*

بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا،^(١) ومن تمام التشبيه أن يكون على غربته شديد القوى، فيوحدها بآية القرآن المتعدين، ويجمع بارشاده المتفرقين، فيعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم باتباع السنة، ويميد اليهم ما فقدوا من استقلال العقل والارادة، فيخرجون من جحر الابتداع والتقليد، ويظهرون في حلي المجد الطارف والتليد، أقمينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد*

صادفت الدعوة مقاومة من قوم وارتياحا من آخرين، كما بينا ذلك في فواتح ما سبق من السنين، ومن اكبر الآيات المبشرات، بأننا في اقبال حياة لاني ادبار ممات، أن الورقات الخضراء، في شجرة الامة الجرداء،^(٢) تزداد خضرة في كثرة، لاسقوطا ولا صفة، فيا لها من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، حفظت حياتها على طول العهد بانقطاع الماء، فكانت بها رندا أصابها الواابل فأتت أكلها ضمة بين، وأوتى أهائها أجرهم مرتين، قل هل ترَبَّصون بنا الا احدي الحسينين، وهل ترَبَّص

(١) إشارة الى حديث مسلم الذي يحتج به اليائسون وهو حجة عليهم (٢) إشارة الى قول الاستاذ الامام: التراب في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراء لا أخرى أهم من بقايا الحياة القديمة، هي مبدأ حياة جديدة

باتقنا إلا ما وعدنا من سعادة الدارين ، قل ان ربي يقذف بالحق علام
الغيوب * قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يُعيد *

قد تمهد طريق الاصلاح، ونادى مؤذنه حيّ على الفلاح ، فسمعه
العربي والتركي، والفارسي والهندي، والتتري والصيني، والملاوي والنجي،
الحضري منهم والبدوي، فأقبل كثير من المرضى، وعرف كثير من
المنكرين، ونطق كثير من الساكتين، ودعا كثير من المشبطين، وأدعى
كثير من الكاذبين، فإن كان قد آن لمن تمهد لهم الطريق ان يقولوا، فقد
آن للممهدين ان يسيروا، ولمن قالوا من قبل ان يفعلوا، وهذؤا إلى
الطيب من القول وهذؤا إلى صراط الحميد *

هذا ما أعد الله له الأمة، بعد ان طال عليها أمد النعمة، رأى أهل
البصيرة من عقلائها ما أصابها من الادواء، وشعروا بشدة الحاجة الى الدواء
كان مرضها واحدا، فكان شعورهم كذلك واحدا، ذلك بأن الاسلام قد
جعلها أمة واحدة في صحتها، وواحدة في مرضها، لم يقو على توحيده إياها
اختلاف المذاهب واللغات، ولا تباعد الجهات وتعدد الحكومات، فكما
كانت صحتها بالاهتداء بكتابه وسننه، كان مرضها بالاعراض عن هدايته،
التي جمعت بين حقوق الروح وحقوق الجسد، واستقلال العقل والارادة
في العلم والعمل، ورابطتي الاخوة والفضل والبر والعدل بين جميع الملل
والنحل،^(١) وانما العلاج ان يرجعوا من دينهم الى خير ما فقدوا، وبأخذوا
لمصلحة دنياهم أحسن ما وجدوا، وكذلك فعل المنعم عليهم، الذين كلّفهم

١٥ « كتبنا في المنار من قبل مقالة في جنسية الاسلام بينا فيها ان الاسلام جاء برابطتين اجتماعيتين
احدهما دنيوية اجتماعية وهي تربط جميع من يعيشون في داره ويخضعون لسلطانه بشريعة العدل والمساواة
والبر والاحسان مهما اختلفت أديانهم. والثانية روحانية تربط الآخذين بهتائمه وآدابه بأخوة أخرى

الناسي والاهتداء بهم ، لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد *
لقد رحضت النوازل هذه الأمة رحضا، ثم مخضتها النوائب مخضاه، وقد آن ان تخرج زبدها محضا، فقد ظهرت نقطه من زمن بعيد، وكثرت ذراته من همد قريب، ولم يبق الا أن يجذب بعضها الى بعض، وتكون في جانب من الزق، هنالك يظهر خير الاسلام، ويعرف فضله في جميع الأنام، وان ذلك لواقع ماله من دافع، انهم يرونه بعيدا، وراه قريبا، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد *

فالمنار يذكر مردي الاصلاح في هذا العام، بوجوب التعاون على الاستمداد من هذا الاستعداد العام، فبادروا الى اغتنام فرص الزمان، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، وماذا لك الا ان تجتمعوا على حقكم، وتعارفوا أنتم ومن يشعر شعوركم ويرى رأيكم، وتوحدوا طريق التربية والتعليم، في الجمع بين علوم الدنيا والدين، قبل ان يطلبكم على الامة أهل التربية المادية المضطربة، والتعاليم التقليدية المذبذبة، الذين تحولوا عن التقاليد الاسلامية، الى التقاليد الافرنجية الصورية، فهم يدحرجون الامة من تقليد الى تقليد، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مردي *

لقد وقف سلفنا المقار والاراضي الواسعة، وبذلوا الدثور والاموال الكثيرة، على معاهد العلم كالمدارس والمكاتب، ومعاهد التربية والارشاد كالمباطات والتكاي والزوايا، وهما نحن أولاء نرى الخلف، قد انشأوا يحبون

سنة السلف ، فهم يذلون الاموال الكثيرة للأعمال الطيبة والخيرية ،
والاحزاب والجمعيات السياسية ، أحسبتم أن الامة تسخر في نهضتها على
الحفظ والمنافع العاجلة ، وتبخل على الاصلاح الاسلامي الجامع بين سعادة
الدنيا والآخرة ؟ تلك اذا كرت خاسرة ، وانا لمردودون في الحافرة ، فلا اتنا
أمة قد كنت فيها وما فارقتها الحياة ، وان الاسلام نائم في قلوب العامة فيحتاج
الى الايقاظ ، وقد كثرت صيحات الموقظين ، الا أنهم لا يزالون متفرقين
ومختلفين ، وقد أذن اليوم بينهم مؤذن التوحيد ، وجاءت كل نفس بمعباسات
وشهيدته لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديدته
ان المجتمين أجدر بالفلاح من المتفرقين ، وان المتفقين أحق بالنجاح
من المختلفين ، وان المستقلين أولى بالثبات من المقلدين ، وان الثابتين أقوى
في الجلاء من التزلزلين ، على أننا لانجالد أعداء الاصلاح بسيف ولا سنان ،
وانما نجادلهم بالحجة والبرهان ، ونحاجهم الى السنة والقرآن ، ونصبر على
ما آذونا ، ونحسن اليهم وان أساؤا الينا ، ولكن لا تترك أمة في الترية
والتعليم ، يتنازعه التفرنج الحديث والجمود القديم ، فلهم دون ذلك ما يشاؤون ،
وليعملوا على مكاتبتهم انا حاملون ، ولينتظروا انا منتظرون ، من عمل صالحاً
فلنفسه ومن أساء فلغيره وما ربك بظلام للعبيد

يا أهل القرآن : ان القرآن كان حجة لكم ، فصار اليوم حجة عليكم ،
أخبركم الله فيه أن الارض يرثها عباده الصالحون ، وان العزة لله ولرسوله
والمؤمنين ، وان حقاً عليه نصر المؤمنين ، وانه وعد الدين آمنوا منكم
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض ، وقال « ولن يجعل الله للكافرين
على المؤمنين سبيلاً » ، وبين فلك بقوله « ما على المحسنين من سبيل ، انما السبيل

على الذين يظلمون الناس ويبنون في الارض» ، فبال الناس يرثون أرضكم،
ويختلفونكم في ملككم، وأنتم لا ترثون أرضاء بل لا تحفظون أروا، وما بالهم
يسلكون كل سبيل للاقتيات عليكم، وما بالكم تحربون بيوتكم بأيديهم
وأيديكم، كيف ذهبت عزتكم، وكيف خضدت شوكتكم، وكيف كنتم
تأخذون فتحمدون، فصرتم تعطون فتدُمون، هل رضيتم بأن تكونوا من
الظالمين الباغين، بعد ان كنتم خير الامم الذين الحسنين، أليس منكم رجل رشيد،
اترضون ان تكونوا ممن نزل فيهم «بأسهم بينهم شديد» ألا تدبرون قوله
تعالى «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه أليم شديد»
يا أهل القرآن : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر»، وجعلكم الله أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس من
أفرط منهم ومن فرط، ولكنكم غيرتم ما بأ أنفسكم، فغير الله ما بكم، فنبه
الوثنيون وأنتم فافلون، واجتمع اليهود وأنتم متفرقون، وسبق النصارى
وأنتم متخلفون، وها أنتم أولاء تستيقظون، فان سرتم الهوينا فالناس مجدُّون،
وان كنتم لا تزالون تختلفون فهم يتفقون، فلا يفرقن بينكم جنس ولا نسب،
ولا لغة ولا مذهب، ولا سياسة ولا مشرب، فان تفرقتم فهي القاضية،
فأما يا كل الذئب من النعم القاضية، اعتبروا بتاريخ من قبلكم، وبأحوال الامم
في عصركم، وتدبروا القرآن، وما بينه من سنن الله في نوع الانسان، فقد آن
الاولان، واستدار الزمان، واتصل القريب بالبعيد، وامتاز الغوي من الرشيد،
ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

منشيء المار و محرره

محمد رشيد رضا الحسيني

٢٠ الانتقاد على المنار . انتقاد احمد بدوي (المنار ج ١ م ١٣)



الانتقاد على المنار

نريد الاقتراح على العلماء المخلصين بأن يكتبوا إلينا بانتقاد ما يرونه متقددا في المنار من مسائل الدين وغيرها عملا بما أوجب الله تعالى من التواصي بالحق والتعاون على الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولكننا نشترط ان تكون الكتابة مختصرة بقدر الامكان وان تذكر المسألة المتقدمة ويبين المكان الذي نشرت فيه بأن يقال هي في جزء كذا من مجلد كذا وإذا ذكر عدد الصفحة يمكن ان يستغني عن عدد الجزء وان لا يحتاج علينا في المسائل الدينية بأقوال بعض العلماء بل بالكتاب والسنة وكذا الاجماع والقياس فيما هما حاجة فيه وأن لا يكون في الكلام استطراد الى مسائل أخرى لاتفيد في بيان المراد من الانتقاد . فمن خالف شيئا من هذه الشروط فلنا الخيار في نشر ما يكتبه وتركه أو نشر ملخصه ولو بالمعنى لانه لا يمكن أن نشغل كثيرا من صفحات المنار بالجدل والقال والقال

انتقاد احمد بدوي افندي

وليعتبر القراء ذلك بانتقاد احمد بدوي افندي النقاش علينا وعلى جميع المسلمين في مسألة القضاء والقدر انتقادا مبهما على غير شرطنا فقد نشرنا كلامه على علاته وأجبنا عنه فانتقل الى الانتقاد علينا وعلى سائر المسلمين في عقيدة القسمة (فريق في الجنة وفريق في السعير) وفي علم الله تعالى بأعمال الناس قبل وقوعها فنشرنا كلامه على علاته ايضا وأجبنا عنه . فأرسل إلينا ردا آخر يزيد على ثلاثين ورقة أرسلها الى ادارة المنار وأرسلتها الادارة إلينا في القسطنطينية فقرأنا جملا من مواضع منها فإذا هي مملوءة بالتناقض والعلامة والاغلاط اللغوية حتى في بديهيات النحو . وقد لامنا كثير من القراء على ما نشرنا له من قبل فماذا يقولون اذا نشرنا له هذه الرسالة الطويلة العريضة وما وعد بإرساله بعدها لتوضيح مسائلها ؟؟

(الطرح ١٣) الانتقاد على المنار - انتقاد احمد بدوي ٢١

يقول احمد بدوي افندي اتنا ظلمناه فيما كتبناه عن انكاره لعلم الله بجزئيات أعمال الناس كلها قبل وقوعها وجاء بقترات من رسالته محتج بها علينا في ذلك ثم انه اماننا بقترات كثيرة وعبرنا بتقليد الغزالي كما عبرنا من قبل بتقليد ابن تيمية؛ فليقل في ذلك ماشاء الله تعالى ونحن نتمنى لو يكون مصيبا ونكون مخطئين فيما فهمناه من كلامه والقراء حكمهم في ذلك .

قد انطبع في ذهن احمد بدوي افندي مسائل في فلسفة الدين مخالفة لما فهمه المسلمون ولما جروا عليه من الصدر الاول الى اليوم وهو يريد بها في المنار والمناضلة عنها فيه على كونه عاجزا عن يانها وعن فهم ما يرد عليها لضعفه في اللغة العربية وعلى اعجابه بها بحيث لا يطبق قبول شيء يخالفها فنحن لا ننشر له بعد الذي نشرناه شيئا منها لاسباب (منها) ان المنار لم ينشأ لنشر فلسفة الافراد الشاذة التي تهوئ بعض الاذهان ولا تنفع أحدا لما فيها من البطلان في بعض المسائل والعلامة والخطأ في العبارة (ومنها) عدم الرجاء في ارجاع صاحبها عن خطأه لاعجابه برأيه وكونه لا يفهم ما يوجه اليه من الكلام العربي الصحيح فيها تماما. وأوضح الآيات على ذلك انه فهم من قراءة المنار في الزمن الطويل ان منشئ المنار مقلد لبعض العلماء كالغزالي (وهذا ما جزم به في رسالته الاخيرة التي لم نشرها) وانه مع ذلك يدعو الناس الى تقليد نفسه !!! (ومنها) اضاءة كثير من صفحات المنار فيما نعتقد انه يضر ولا ينفع. فلا أحد بدوي افندي ان ينشر فلسفته في مجلة ينشئها أو كتب ورسائل ينشرها أو يبحث عن مجلة غير المنار

هذا واننا بعد هذا كله نحترم استقلال الرجل بفهمه ونعذره من بعض الوجوه على ما نراه مخطئا به وقول إنه يجوز ان تكون تخطئنا له في بعض المسائل لضعف عبارته وكونها لا تؤدى مقصده ولكننا نجزم بأنه على استعداد له لفلسفة الدين قد أخطأ ويخطئ كثيرا في فهم القرآن وفي النظر والاستدلال ولعله لو أتم اللغة العربية واطلم على كتب التفسير والحديث وترك الاعجاب برأيه يجي منه خير كثير والله الموفق

﴿ آدم أبو البشر ﴾

جاءنا من السيد محمد البشير النيفر المدرس بجامعة الزيتونة في (تونس) ما يأتي

« بسم الله الرحمن الرحيم »

فضيلة العلامة الحكيم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الزاهر أقامنا
الله وإياه على الطريقة المثلى

انا قرأ في فاتحة كل مجلد من مناركم وخاتمة الدعوة الى انتقاد ما ينهم انتقاده
من مسائل الدين أو السياسة وذلك « والحمد لله » من أمتن الينات على طهارة
نيتكم وكنا نود لو برزقنا الله سعة في الوقت حتى نكتب اليكم في شأن ما أشكل
علينا من مسائل قليلة جاءت في التفسير وغيره احياء لشعيرة من شعائر الدين أمانها
الجهل بأصوله . وقد رأينا في باب التفسير من العدد السابع من مجلد هذه السنة
(سنة ١٣٢٧) رأيا في أبوة آدم للبشر لا يرتضيه القرآن فيما نرى فبادرنا الى الكتابة
اليكم في ذلك ونحن في يقين من نزاهة ضميركم عن التعصب والله الموفق

قلم ان للاستاذ الامام رأيين في تفسير آية « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » احدهما أن ليس المراد بالنفس الواحدة
آدم لا بالنص ولا بالظاهر . ثانيهما أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع ينطق
بأبوة آدم للبشر اجمعين . ويظهر لي من جانبكم الرضا عما ذهب اليه « تفمده الله
برحمته » ولكن العبد أشكل عليه الرأيان لما سأين

أما الاول فلأن حمل النفس الواحدة على اصل من اصول العرب لا يرضى
به التعبير بالناس والروايات المستفيضة في مدنية السورة تقعد في طريق من يحمل
الناس على اهل مكة فالظاهر الحل على العموم . وليست الآية الكريمة كآية
الاعراف « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها »

الآية لوجين الاول ان سورة النساء مدنية وسورة الاعراف مكية ثانيهما ان في حمل آية الاعراف على العموم مسأ لمقام النبوة فما أبعد ما بين الآيتين !
وأما الثاني فلأن القرآن الشريف والسنة السنية ناطقان بأبوة آدم للبشر اجمعين واخراج ما جاء في ذلك عن ظاهره رعا لمذهب دارون يشبه أن يكون من تفسير القرآن بالرأي الذي كان يشنؤه الامام « رحمه الله » وجريتم « حفظكم الله » على طريقته في ذلك

نداء القرآن للناس بيني آدم في مقام الوصية باخذ الحذر من وسوسة ابليس وفخته ومقام التشريع العام ظاهر في أن المكلفين عن بكرة ايهم ابناء آدم عليه السلام وما قلتموه عن الاستاذ الامام في تأويل ذلك بعيد كما يتجلى لفضيلتكم بقليل من التدبر وأية نكتة في توجيه الخطاب الى بني آدم اذا كان التكليف يشملهم وغيرهم ؟
أما السنة السنية فمن أظهر ماورد في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم من آدم وآدم تراب » وما جاء في حديث الاسراء من الاسودة عن يمين آدم وشماله وأنها نسمة فيه أفكانت ارواح غير الادميين في مقرأ آخرام كانت في ذلك المهر ولكن لم يهتم بها آدم عليه السلام ولا النبي صلى الله عليه وسلم « اذ لم يسأل عنها » لأنها ليس لها في الآخرة مقام معلوم . وأصرح من ذلك وهذا حديث الشفاعة « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون انت ابو الناس » الحديث . وفي سمة علمكم بالسنة ما يغني العبد عن حشر أكثر من هذا ان لم تكن الآيات والاحاديث نصوصا قاطعة في الموضوع فهي ظاهرة فيه والظواهر اذا اجتمعت أفادت القطع كما يقول الاصوليون ولو ذهب ذاهب الى أنها لا تفيد أكثر من الظن كان للقائل بأبوة آدم للناس اجمعين ان يسأله عن الوجه في إثبات ذلك الظني على هذا الظني فان كان الوجه عنده دره ما عساه أن يرد على القرآن من شبهات العلماء القائلين بذلك فالذين لا يؤمنون بالنسب أكثر من اولئك عددا واقوى شبا فهل نوول الآيات الواردة في عالم الغيب بما لا يكدر مشربهم وينقض مذهبهم ؟

أما قولكم حفظكم الله تعالى « ان المسألة علمية لادينية - وقولكم - ان المتبادر من

النفس بقطع النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات هي تلك الحقيقة الجامعة التي يعبر عنها بالإنسانية - أو قريب من هذه العبارات - فالعبد فيما نظر أما الأول فلأن ما بين دفتي المصحف دين لا شيء منه بجائز مخالفته وهل يأذن الدين لأحد أن يذهب إلى مالا يصادق عليه القرآن في تكون الجنين باسم علمية هذا البحث أم هل يأذن لأحد أن يقول بما ينقضه القرآن في تأريخ فروعون باسم إن المسألة تاريخية ؟

وأما الثاني فلأن تلك الحقيقة الجامعة التي يعبر عنها بالإنسانية أو البشرية أمر اعتباطي لا يصح أن يكون منشأ الخلق والإيجاد هذا ما ينسجم له الوقت من البحث وفيما آتى الله فضيلتكم من البسطة في العلم والاستقامة في الرأي ما يقني عن التذكير بأقل من هذا والسلام عليكم أولا وآخرا . وكتب في ٢٧ رمضان عام ١٣٢٧ (المنار) نشكر لا خينا في الله انتقاده وتذكيره وغيرته على الدين والعلم ونجلي ما ألم به من المسائل بما يأتي :

- (١) ان الأستاذ الامام لم ينف كون آدم أبا البشر كلهم ولا قال ان القرآن ينبغي أن يوئل ليوافق دارون أو غيره ولا قال انه قد ثبت رأي الذين ينفون كون آدم أبا لجميع البشر ثبوتا قطعيا حتى نوئل لاجله كما صرحنا بذلك في تفسير الآية ولم يتكلم أيضا في تحقيق المسألة في نفسها (مسألة أبوة آدم) وإنما قصارى رأيه انه اذا ثبت ما يقولون لم يكن ذلك مخالفا للقرآن فيكون شبهة على الاسلام ونحتاج الى التأويل فعلى هذا يكون فهمه رحمه الله للآية ليس من تفسير القرآن بالرأي سواء كان فهمه صوابا أم خطأ لأنه لم يحاول ان يرجع القرآن الى رأي رآه أو وافق عليه غيره وانما فهم الآية وأمثالها فهم لا يرد عليه اعتراض ولا مجال معه للطعن في القرآن في هذه المسألة
- (٢) قلتم انه ظهر لكم انني راض عما ذهب اليه قلتم هذا بعد قتل المسألتين فعلم منه انكم فهمتم انني راض عنهما كليهما وقد رأيتم في كلامي الجواب عما استدلل به من تنكير ما به من النفس الواحدة من رجال ونساء وتفسير النفس الواحدة بغير مفسرها به رحمه الله تعالى وغير ذلك وفيه الوعد بتحقيق مسألة ما يفيد مجموع آيات القرآن المنزلة في خلق الانسان عند تفسير ما ورد من ذلك في سورة الحجر أو سورة المؤمنين ،

فلم من هذا الوعد اننا لما نبين رأينا فيما يدل عليه مجموع القرآن في خلق الانسان وانما كلامنا محصور في تفسير تلك الآية بحسب ما فهمه الاستاذ الامام وما فهمه هذا العاجز من تلاميذه المستقلين الذين لا يقادونه تعاليدا في شيء ما وما كان يرضى ان يقلده أحد في شيء وانما كان يبحث على الاستقلال . وبعد هذا كله أقول ان ما استظهرتموه صحيح في الجملة وسترون وجهه فيما يلي هذا من الوجوه والمسائل

(٣) ذكرتم ان للاشكال عندكم مثارين: فأما المثار الاول وهو كون السورة مدنية لا يجوز ان يراد بالناس فيها أهل مكة فالخطب فيه سهل فانكم قد رأيتم اننا اعتمدنا كون السورة مدنية وكون الخطاب فيها ليس لأهل مكة خاصة ولكن هذا لا يقتضي كون القول بهذا شاذا فانه معزو الى امام المفسرين ومعولهم وهو ابن عباس (رض) وعبر الرازي عن مقابله بالاصح ومقابل الاصح هو الصحيح ، فان لم يكن الخطاب لاهل مكة جاز ان يكون للعرب عامة ولا يقعد في طريق هذا كون السورة مدنية ولا كون الاسلام ديننا عاما كما انه لا يقعد في طريق غيره من الخطاب الذي وجه الى العرب أو الى بعض الاقوام أو الاشخاص فان عموم الاحكام الشرعية معتبر فيما كان مورده خاصا ولو شخصا ما لم يعمد دليل على الخصوصية . مثال ذلك في العرب قوله تعالى (١٢٨:٩) لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فان تفسير أنفسكم بالعرب لا يفي كون الرسالة عامة لجميع البشر . ومثاله في الامور الشخصية ماورد في الاثناء عقب استفتاء بعض المؤمنين وأستثمهم المعبر عنها بمثل يسألونك ويستفتونك كما هو مكرر في سورة البقرة وسورة النساء وكان يكون المخاطب بالجواب هو السائل والحكم عام بالاجماع . على اننا لم نجعل كون الخطاب لاهل مكة هو العمدة في الاستدلال على ما فسرنا به النفس الواحدة ولا كونه للعرب وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة

(٤) وأما المثار الثاني للاشكال وهو ماورد من الكتاب والسنة في أبوة آدم لجميع البشر فهو على تقدير تسليمه فيهما معا لا يقتضي كون النفس الواحدة في الآية الاولى من سورة النساء هي آدم اذ يجوز ان يثبت ذلك في آيات غيرها وأحاديث ولا يكون هو المراد منها ولم يقل الاستاذ الامام ولا قلنا ان هذه الآية تنفي كونه أبا لجميع البشر .

(المجلد الثالث عشر)

(٤)

(المنار ج ١)

ولكم ان تحتجوا بذلك على قوله رحمه الله إنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أبوة آدم لجميع البشر وستعلمون ما فيه

(٥) انكم قد ذكرتم ان حمل آية الاعراف على العموم لا يصح لأنه يمس مقام النبوة فاذا امتنع هناك أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم فلم لا يجوز ان يمتنع هنا وهو ليس متبادراً من اللفظ العربي بمجذاته حتى قول اننا أولنا آية الاعراف لتطابق القول بمصمة الانبياء ولا حاجة الى تأويل آية النساء. قال صواب ان عدم حمل النفس الواحدة على آدم في الآيتين ليس تأويلاً لهما لان لفظ النفس ليس مرادفاً لكلمة آدم يوضح ذلك الوجه الآتي

(٦) ان ما يرد في تفسير مبهمات القرآن لا يجعل اللفظ المبهم نصاً ولا ظاهراً في المعنى الذي فسره في الحديث ولا في القرآن نفسه ان وجد ولكننا نقبل ذلك التفسير اذا صح عندنا. مثال ذلك أن يصح في حديث ان المراد بقوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى) هو فلان بن فلان فانا نقبل هذا التفسير على الرأس والعين ولكننا لا نقول ان لفظ رجل في الآية هو نص أو ظاهر في ذلك الرجل المعين لان العربي الذي لا علم له بذلك الحديث لا يفهم هذا المعنى من اللفظ ولم يرد في الكتاب ولا في الحديث تفسير للنفس في آية النساء بآدم ألبتة فكيف نقول ان ما ورد في ذلك يجعلها نصاً أو ظاهراً وهو لم يرد تفسيراً لها؟ وهذا هو مرادنا مما قلناه في (ص ٤٨٦م ١٢) ان الذين فسروا النفس الواحدة بآدم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم وهي ان آدم أبو البشر

(٧) استدل صديقنا المتقد على كون جميع الناس من بني آدم ببناء الله تعالى في القرآن لبني آدم في مقام الوصية بالخدر من فتنة الشيطان ووجه الاستدلال عنده أنه اذا لم يكن المراد ببني آدم جميع المكلفين لا يكون في توجيه الخطاب اليهم نكته. ويمكن أن يجاب بأن نكته ذلك في الآية التي أشار إليها هي إقامة الحجة عليهم بما كان من عاقبة وسوسته لا يهم والمعبرة في ذلك لسائر المكلفين الذين لا يعتقدون انهم من ذرية آدم كأهل الصين هي ان الشيطان يردي من اطاعه فيجب أن يجتنبوا

طاعته كما يجب ان يجتنبها أبناء آدم . ونظير ذلك اعتبار المسلم بمثل قوله تعالى «يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل» فيعلم انه لا يكون على شيء يعتد به من الاسلام حتى يقيم القرآن . وقد أشارت عائشة الى هذا المعنى في حديث لمن أهل الكتاب الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فقالت «يحذروا صنعوا» وقد بينا آفا ان توجيه الخطاب في القرآن الى قوم أو أناس معينين لا ينافي عموم التكليف فاذا فرضنا ان بني آدم هم العرب ومن كان يساكنهم من أهل الكتاب وان الخطاب في مثل تلك الآية خاص بهم لوجود النبي بينهم فلا يمنع ذلك ان يعتبر بالموعظة التي في الخطاب من يدخل في الاسلام من غيرهم . ومن ذلك خطاب الانصار بقوله تعالى «١٥٣: ٣» واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وهي هداية لجميع المسلمين أيضا كما قبلها وبعدها

(٨) بعد هذا يمكن ان يقال اذا كان في البشر ألوف الالوف لا يعتقدون أنهم أبناء آدم ولم يسموا باسم آدم فما هي نكتة خطابهم ودعوتهم الى الاسلام بنسبتهم الى آدم والمأثور المقول ان يخاطب الناس بما يعرفون وأن يحمل حديث العاقل للقوم على ما يهودون في مثل النداء فان أراد إعلامهم بشيء مخالف لما يعتقدون جاء به بصيغة الخبر المؤكد كما هي سنة القرآن المطابقة لقوانين البلاغة العليا ويشيرون الى هذا في أول كتب المعاني وفي صحيح البخاري من حديث علي موقفا حدثوا الناس بما يعرفون، اتحبون يكذب الله ورسوله؟ وفي مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود «ما أنت بمحدث قوم حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة» . وورد في الضعاف المتعددة الطرق عن ابن عباس مرفوعا «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وهذا الوجه أي كون كثير من البشر لا يعرفون آدم ولا يعتقدون أبوتهم هو العمدة في جزم الاستاذ الامام بهدم حمل آية أول النساء على هذه المسألة المشهورة عند المبرانيين والعرب مع كون لفظها ليس نصا ولا ظاهرا فيها من حيث لفظها وقد أجاز ان يطبق كل قوم اعتقادهم عليها

(٩) ان ما أوردناه من الاحاديث ليس نصا أصليا في المسألة فان المخاطبين بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «كلكم من آدم» لم يكن فيهم أحد من الصينيين ولا من هنود

أمريكا ولا من أهل ملقا ولكن الحديث يكون هداية لهؤلاء، بعد دخولهم في الإسلام على الطريقة التي أشرنا إليها في بعض المسائل السابقة . وكذلك حديث الأسود التي رآها النبي (ص) عن يمين آدم وشماله لا تدل على كونه أبا لجميع البشر ولا يعارض هذا كونه (ص) لم يذكر أنه رأى هناك أوفي مكان آخر نسم قوم آخرين من البشر كما أن ذكره لبعض الأنبياء في ذلك الحديث لا يمنع أن يكون هناك أوفي مكان آخر أنبياء آخرون فالحديث لم يرد في بيان مقر جميع أرواح البشر والأنبياء ولا دليل فيه على كون ما رآه يكون دائما حيث رأى فقد ورد في مقر الأرواح أحاديث أخرى والظاهر أن ما رآه صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة قد مثل له حيث رآه لأجل أن يراه والله أعلم حيث يكون في سائر الأوقات ، وقد مثلت له (ص) الجنة في عرض الحائط وهي التي عرضها كعرض السماء والأرض . وكذلك يقال في حديث الشفاعة فإن تحدث ولد آدم بالذهاب إليه هو كتحديث اتباع كل نبي ذكر في الحديث بالذهاب إليه ولا ينافي ذلك أن يكون في البشر أقوام آخرون لا يتحدثون بالذهاب إلى أحد أو يتحدثون بالذهاب إلى أنبيائهم أرجأهم فيهم » وان من أمة إلا خلا فيها نذير »

(١٠) إذا فرضنا أن هذه الأحاديث تدل وحدها أو مع غيرها على كون آدم عليه السلام أبا لجميع من وجد في الأرض من البشر بالنص أو بالظاهر فلا يقتضي أن يكون ذلك تفسيرا للقرآن إذا لم يكن أفضله نصا ولا ظاهرا في ذلك والاستاذ الأمام لم يتعرض لما ورد من الأحاديث في المسألة وإنما اكتفى ببيان كون ما يعتقده كثير من البشر في أصلهم ومنشئهم لاحجة فيه على القرآن إن صح ولا وجه لأن يكون حائلا دون إيمانهم به ولم يتعرض لمثل هذا في الأحاديث

(١١) نحن نعتقد أن أسلوب القرآن في الأجمال والابهام والإطلاق والعموم هو من أقوى وجوه الإعجاز فيه وأسباب تعاليه عن تطرق الريب إليه وتجويم الشبهات حوله وليس هذا الأسلوب بالصفحة التي يقدر عليها البشر فأننا نرى أعلم العلماء منهم في علم أو فن يؤولف فيه كتابا فلا يمر عليه إلا زمن قليل حتى يظهر له وانفرد الاختلاف والخطأ فيه وقد مر ثلاثة عشر قرنا ونيف ، لم يظهر غير هذا القرآن

الذي جاء به النبي الأمي الناشيء في الأميين خطأ ولا اختلاف (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) والاحاديث ليس لها هذه المزية في الإعجاز وكثير منها منقول بالمعنى ومنها ما كان يقوله النبي (ص) عن اجتهد لا عن وحي ولا سيما المتعلق منها بأمور العالم دون أمور الدين . أفيصعب على بعض المسلمين إظهار هذه المزية لكتاب الله في بعض المسائل على غير الوجه المشهور عندهم وان لم يتقض ذلك المشهور في نفسه ١١ وكان يفبغي المتقصد أن يذكر ما عنده من الجواب لمن يوقنون بأن البشر من عدة أصول كما تمنينا في (ص ٤٨٨ م ١٢)

(١٢) يقول المتقصد ان شبهات الذين لا يؤمنون بالغيب على الآيات الواردة في عالم الغيب أقوى من شبهات الذين ينكرون كون آدم أبا لجميع البشر أو يعتقدون ان لهم عدة آباء فهل نوّول آيات عالم الغيب بما لا يكدر مشربهم ولا ينقض مذهبهم ؟ وتقول ان هذه الدعوى ممنوعة فالذين لا يؤمنون بالغيب لا يوردون شبهات على عالم الغيب وانما هم قوم تابعون لحسهم يقولون اتنا لا نوّمن الا بما نراه أو نحس به وهم يعلمون ان عدم الاحساس بالشيء أو عدم العلم به لا يقتضي عدمه في نفسه ومن تقوم عنده الحجة منهم على الوحي والنبوة لا يرى اخبار عالم الغيب مانعة من ايمانه وما كنت أظن ان هذا يخفى على المتقصد الفاضل ولعله سرى اليه من بعض المارقين الذين كفروا بالله ورسله تقليدا لبعض الافرنج اذ يسمعونهم أو يسمع عنهم انكار الملائكة والجن فليسألهم عن دليل هذا الانكار هل يجد عندهم دليلا او شبهة ؟ لا لا ! وانما يقولون انه لم يثبت عندنا بالحس ولا بالدليل العلمي ١٢ ونحن المؤمنون نقول مثل ذلك ونزيد انه ثبت عندنا بخبر الصادق الذي هو اصدق ممن تثقون بخبرهم اذا قالوا لكم ان في الكون كذا كذا من الغرائب الطبيعية

(١٣) أذكر المتقصد بمسألة لا يفبغي أن ينساها المستقل في العلم الذي يضيئه أن يفهم القرآن فهما صحيحا وقد صرحنا بها في المنار من قبل وهي ان الاصطلاحات الشرعية والفنية الحادثة بعد نزول القرآن والروايات والتقاليد المشهورة في تفسيره - هذان الأمران هما اللذان يحولان كثيرا دون فهم القرآن بما تمطيه عبارته الفصحى

ويتبادر من أسلوبه الأعلى فيجب أن يكون القرآن فوق الاصطلاحات والمسلات كلها وأن يستعان على فهمه بالروايات الصحيحة التي لا تخل بما يتبادر من عبارته وأسلوبه البليغ وحكمة كونه هداية لجميع البشر في كل زمان ومكان وانا نرى كثيراً من المفسرين يخطئون عند غفلتهم عن هذه القاعدة ويخالفون الروايات الماثورة عن السلف عند تنبيههم لها اذا رأوا الرواية مخالفة لما يقتضيه الأسلوب العربي بحسب فهمهم ومن ذلك ما ستره في تفسير الجزء الثاني عن ابن جرير شيخ المفسرين الأولين

(١٤) أما انتقاده نفعا الله بغيره على العلم والدين لقولنا ان المسألة علمية لا دينية فاتي أجيبه عنه بالإيجاز وان لم أتد كراتي قلت هذا في تفسير الآية ولا أجد وقتاً للمراجعة فأقول ان ما يذكر في القرآن من أمور الخلق وعجائبه وأسراجه لا يراد به شرح أحوال المخلوقات وبيان ما هي عليه في الواقع تفصيلاً لان هذا ليس من مقاصد الدين وانما يذكر على انه من الآيات على قدرة الله وعلمه وحكمته في خلقه ورحمته بعباده ، ومن المنبهات للانتفاع بما في هذه المخلوقات والشكر عليها ، ولذلك يستعمل فيها المجاز والظواهر المتعارفة بين الناس وتحديد المسائل العلمية لا يكون بمثل هذا كقوله تعالى « وجدها تغرب في عين حمئة » فلا يراد به أن ذا القرانين وجد الشمس تنزل من السماء فتغرب في عين حمئة من عيون الأرض . ومع هذا كله لا يكون خبر القرآن الا صادقا ولكننا لا نعرف ان أحدا من علماء المسلمين غني كنهائنا وعناية شيخنا الاستاذ الامام بالدعوة الى الاهتداء بالقرآن كله وصرف معظم عنايتهم الى ما كثر الارشاد اليه في آياته كالبحث في خلق السموات والأرض وما فيهما من البحار والأنهار والجبال والنبات والدواب وغير ذلك وكالسير في الأرض والاعتبار بسنن الله في أحوال الأمم بعد معرفة تأريخها ، فانا نرى علماء المذاهب الدينية فينا قد أهملوا أكثر ما أرشد اليه القرآن وجعلوا الدين كله أو جله محصوراً في الاحكام العملية التي لم يعن القرآن بها وهي أقل ما ورد فيه ولا سيما الاحكام الدنيوية كالبيع والشركات والمخاصمات فلا يقال لعلنا ان كل ما في القرآن دين وإن الدين لا يأذن لأحد أن يقول قولاً لا يصادق

عليه القرآن فنحن الذين ندعو دائما الى جعل حكم القرآن فوق كل حكم وهدية فوق كل هدي وخبره فوق كل خبر وانما يقال ذلك لغيرنا من علماء المسلمين الذين قالوا حتي في الاحكام التي هي عندهم جل الدين ما لم يصادق عليه القرآن كقولهم ان مدة الحمل تكون في الواقع المعتبر شرعا اكثر مما حدده القرآن من مدة الحمل والفصال جميعا وقد رأى صديقنا المتقدم كتبناه في ذاك الجزء الاخير من الجهاد الماضي . فاذا جاز ان يعتمد أئمة الفقه منا على قول بعض النساء اللواتي هن مظنة الخطأ والكذب فيما لا يصادق عليه القرآن وقد نطق بغيره بناء على ان ما نطق به يحمل على الغالب المعروف عند جمهور الناس فلم لا يجوز عند اتباعهم ان يعتمد على قول جمهور العلماء الباحثين المدققين في مسألة عطية لم يرد في القرآن نص فيها وإنما ذكرت مبهمة في سياق مقصد من مقاصده كحث الناس على ان يتقوا الله في ذوي أرحامهم والضعفاء منهم لانهم من أصل واحد أو جنس واحد وعبر عن ذلك بالنفس الواحدة ولكنه لم يبين حقيقة تلك النفس . على اننا لم نحمل الآية ولا غيرها من الآيات على ما قاله أولئك العلماء الباحثون في أصول البشر وخلقهم ولكنتا اخترنا ان ندع ما أبهمه القرآن على إيهامه (ص ٤٨٦ م ١٢) وهو تنكير تلك النفس وعدم تعيينها أو فهمها مما يتبادر من اللفظ العربي بصرف النظر عما وراءه من الروايات والتقاليد المسلمات التي ليست بنص عن المعصوم في تفسيرها (ص ٤٨٨ م ١٢)

(١٥) وأما انتقاده الاخير على قولنا في تفسير النفس المتبادر من اللفظ فقد بناء على ذكر لفظ الانسانية في عرض كلامنا وتفسيره إياه بالمعنى المشهور بين العامة ناسيا ما فسرناه به وما عبرنا به في أول العبارة عنه من قولنا هو الماهية أو الحقيقة التي بها كان انسانا . ونهني بذلك الروح الانسانية التي انحدت بالجسد فصار مجموعهما حيوانا ناطقا لولاها لم تكن هذه المواد الترابية التي تكون منها جسد الانسان خلقا آخر حيا ناميا متحركا . فهل يقول ان هذه الحقيقة الانسانية أمر اعتباري ؟؟ كلا إنها خلق وجودي مستقل

(١٦) بعد ان طبع تفسير تلك الآية في المنار قبحناه وزدنا فيه فوائد

اقتناها في نسخة التفسير التي تطبع على حديثها منها ان لبعض الباحثين من المسلمين العصريين رأيين آخرين في النفس الواحدة أحدهما انها الاثني ولذلك وردت مؤتة في كل آية وصرح بتذكير زوجها الذي خلق منها في بعض الايات وثانيهما انها كانت جامعة لاعضاء الذكورة والانوثة وذكروا لذلك نظائر أثبتها العلم الحديث . فراجع هذا في (ص ٣٣١ ج ٤) من التفسير وسيصدر بعد زمن قليل

هذا ما سمح لنا به الوقت من ايضاح المسائل المتعلقة بهذا الانتقاد وصفوة القول ان ما أوردناه في التفسير لا ينفي القول بآدم لجمع البشر وقد وعدنا هناك بتحرير هذه المسألة في موضع آخر من التفسير



(المارچ ١٣م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٣٣

قضاء الفرد وقضاء الجماعة

﴿ في الاسلام ﴾

أيها السادة

كلمتي اليوم في قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام وحيثما قلت قضاء الجماعة فاما أريد مدلوله العام أي القضاء والافتاء والتشريع أو التفريع نعلمون ان كفالة العدل الذي هو مناط الراحة والسعادة في كل مجتمع انما هو القانون أو الشريعة التي تصان بها الحقوق وترد المظالم ويعاقب المجرمون المجترعون على انتهاك حرمة الراحة والامن في الهيئة الاجتماعية وهذه القوانين اما أن تكون وضعية أو شرعية وقد عرفها ابن خلدون بقوله :

« اذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وكابر الدولة وبصرائها كانت سياسية عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسية دينية » ونعلمون ان الفقه الاسلامي وأريد به قسم المعاملات والعبادات هو قانون المسلمين الشرعي ومناطق الاحكام التي يفصل بها في المنازعات والخصومات التي تقع بين الناس

أقول القانون الشرعي تجوزاً اذ أن أحكام الشريعة الاسلامية وقانونها الجامع انما هو الكتاب والسنة وهما الاصل أما الفقه فاما يسمونه شرعاً باعتبار ان مأخذه من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والاجماع والقياس فاذا انطبق عليه تعريف ابن خلدون فاما ينطبق عليه من هذه الجهة أي ان تلك القوانين لها أصل في الشرع لانها هي بعينها المفروضة من الله

وبما ان أساس التفريع أو التشريع عند الفقهاء هذه الاصول الخمسة فقد سموا

(*) خطبة لرقيق بك العظيم المؤرخ المشهور القاها على طلاب مدرسة القضاء الشرعي بمصر

(المارچ ١) (٥) (المجلد الثالث عشر)

٣٤ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المارچ ١ م ١٣)

الاحكام الفقهية شرعا وخالفهم في ذلك كثير من أئمة العلم والمحدثين فقالوا كل حكم لا يستند الى دليل او لا يعرف دليله من الكتاب أو السنة فليس بشرع

وليس من غرضي في هذا البحث الحكم بين الفريقين وإنما الغرض منه تقديم مقدمة تساعدنا على الانتقال الى النظر نظرا صحيحا في سير القضاء وتأريخه وكيف كان القضاء والافتاء في الاسلام وما هو ضمان العدالة فيهما وما منزلة قضاء الفرد وقضاء الجماعة من الصواب والخطأ ونستطرد من ثم الى ما تخلل التشريع والقضاء من الشئون التي لا يخلو يانها من فائدة وإن كنت لأستطيع من البيان غير جهد المقل علما ان أساس التشريع وأصله في الاسلام هما الكتاب والسنة بمعنى أن الاحكام الدينية أي العبادات والقوانين الدنيوية أو السياسية كما يسميها ابن خلدون وهي أحكام المعاملات والعقوبات التي وردت في الاصلين المذكورين قد قررهما الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم فصارت شرعا وهذا الشرع لا يدخل تحت مدلول قضاء الجماعة المراد به جعل قوة التشريع لافي يد واحد بل جماعة الا من حيث لزوم فهمه على وجوهه التي ارادها الشارع أي إن تفهم الحكم من هذا الاصل وتقريره هو الذي يلزم ان يناط بالجماعة دون الفرد تفاديا من الخطأ والاثم

وتعلمون بالضرورة أن الاحكام التي شرعها لنا الشارع كانت تشريع تدريجا فكلما عرضت له حادثة أو سئل عن حكم شرع له شرعا حتى كان من ذلك في الكتاب والسنة نحو ست مئة وخمسين حكما أو تزيد اعتبرها أئمة الفقه بعد ذلك اساسا للتشريع فوضعوا لنا كتب الفقه التي كانت في الممالك الاسلامية ولم تزل في بعضها مدار الاحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات وما يتبعها من قضاء المظالم والحسبة وسياسة الرعية وغير ذلك الى اليوم

ويبدأ تدوين الاحكام الفقهية من أواخر العصر الاول واوائل الثاني فالتشريع إذا له في الاسلام تأريخان: تأريخ تقرير أصول الشريعة والعمل بهذه الاصول، وتأريخ التفريع أم الفقه والعمل به . يتخلل ذلك أيضا تأريخان : تأريخ حفظ الشريعة في الصدور ، وتأريخ قيدها في الدفاتر والسطور

(المارچ ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٣٥

وابيان ذلك و بيان كيف كان يقضي الصحابة والتابعون أقول :
علمنا ان اساس الاحكام ومدارها ومعمول القضاء في الصدر الأول كان على الكتاب والسنة أما الكتاب الكريم فقد كتب متفرقا في عهد النبوة في خلافة ابي بكر كما هو معروف مشهور . وأما السنة السنية فقد بقيت محفوظة في الصدور الى اواخر عهد التابعين او كتب منها في غضون هذه المدة شيء يسير
فكان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين ملازما للقاء بالضرورة لان القضاء كان الى الخليفة وهو لا يحفظ الاحكام التي وردت عن الشارع كلها بل كان كثير من الصحابة يحفظ كل واحد منهم شيئا منها فاستفتاؤهم في معرفة الحكم ضروري واليكم ما روي عن قضاء ابي بكر وعمر

اخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان ابو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الامر سنة قضى بها فان اعياء خرج فسأل المسلمين وقال اتاني كذا وكذا فهل علمتم ان رسول الله قضى في ذلك بقضاء فرما اجتمع عليه نفر كلهم يذكر من رسول الله فيه قضاء . فيقول ابو بكر الحمد الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان اعياء ان يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان اجمع رأيهم على امر قضى به وكان عمر يفعل ذلك فان اعياء ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لابي بكر قضاء فان وجد ابا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤوس المسلمين فاذا اجتمعوا على امر قضى به

هذه رواية البغوي عن قضاء أبي بكر وعمر ومنها يتضح أن القضاء في عهدهما قضاء الجماعة وعليه يقام قضاء من بعدهما من الخلفاء الراشدين في الدور الاول لتأريخ القضاء في الاسلام أي الى العهد الذي بدأ فيه التدوين والعمل بالقروع بدليل انه كان في كل مصر من الامصار الاسلامية نفر من الصحابة ثم التابعين يسمون الفقهاء لحفظهم الاحكام وتفقهم في الدين وكانوا يستشارون في النوازل عند القضاء فيها لانهم حفاظ الشريعة والرايون للاخبار الصحيحة فلا مندوحة عن الرجوع اليهم في القضاء

٣٦ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المارچ ١٣٠١ م)

ومن الفقهاء الكبار في الصحابة علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن ثابت وابو سعيد الخدري وانس بن مالك ومعاذ بن جبل ومن في طبقتهم ممن يحفظ عن رسول الله قليلا او كثيرا

وقال ابن القيم ان عدد من حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة . وكان اكثر هؤلاء مؤرخين في الامصار بالضرورة وهم شوري القضاء حيثما وجد منهم جماعة يستشارون كما أثبت ذلك التأريخ وتلي هؤلاء طبقة أخرى من أصحابهم وهم التابعون صارت اليهم الفتوى في الامصار فكان في المدينة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد الى غير هؤلاء . وتليهم طبقة أخرى منهم محمد بن شهاب الزهري المشهور وأضرابه وطبقة أخرى فيهم الامام مالك بن انس صاحب المذهب في المدينة وكان من المفتين في مكة عطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان ومجاهد بن جبر وغيرهم وتليهم طبقة ثم طبقة الى قيام الامام محمد بن ادريس الشافعي صاحب المذهب في مكة

وكان من المفتين في البصرة عمرو بن سلمة الجرمي وأبو مرجم الحنفي والحسن البصري وغيرهم وتليهم طبقة فطبة وعلى هذا تقاس بقية الامصار كالكوكة ومصر والشام وغيرها وكلها كان فيها العدد الجهم من التابعين وتابعي التابعين يستشارون في الاحكام ويتناقلون الشريعة حفظا في الصدور الى أن دوت في السطور

إذا أضفنا الى هذا ان رسول الله شرع لهم الاجتهاد عند عدم وجود النص وان أبا بكر وعمر كانا لا يجتهدان في مسألة الا اذا جمعا رؤوس الناس وخيارهم لاستشارتهم وحكما ان بقية الخلفاء الراشدين كانوا كذلك وقسنا على ورعهم ورع من بعدهم من التابعين وتابعيهم واتباعهم سنن من قبلهم خوفا من تبعة الفرد بالرأي واعتصامهم بالشورى مع اهل العلم والحديث بدليل ما رواه عن قضاء الجماعة في عصرهم ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن المسيب بن أبي رافع الاسدي التوفي سنة ١٠٥٠ قال : كان اذا جاء الشيء من القضاء ليس في الكتاب ولا السنة سمي

(الماروج ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٣٧

صوا في الامراء فيرفم اليهم فجمع له اهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق اذا أضفنا هذا كله الى ما سبق بيانه نتج لنا منه أن القضاء في العصر الاول كان قائماً بالشورى أو هو قضاء الجماعة الذي فيه كفالة الحقوق ونحري العدل والحق وهو خبر من قضاء الفرد وأبقى لسعادة الامة وأضمن لبقاء الدول بلاريب ليس المراد بقضاء الجماعة هو قضاء هيئة مؤلفة من اكثر من واحد فقط كما قد يقبدر الى الذهن بل هي بالمعنى المشترك ايضا جعل قوة التشريع القضائي مصونة عن رأي الافراد وتفردهم بالتشريع منوطة بالجماعة تثبتا من الحكم واطمئنانا للدليل واعتمادا على ما هو الاصلح عند الجماعة اذا تعذر وجود النص

ان مراعاة الاصلح قاعدة من أهم قواعد الشرع الاسلامي التي يدفع بها الحرج وتندأ المفاسد عن المجتمع حتى لقد كان كبار الصحابة يراعون قاعدة الاصلح عند الضرورة مع وجود النص كما يأتي بيانه بعد ويتنازعون على المسألة الواحدة يجي بها النص من عدة روايات أو يحتاج الى التفهم الدقيق تثبتا من الحكم ورغبة بمحض الخير للامة والعدل بين المتقاضين وبذلا للجهد في بيان الحقيقة للمستفتين وقد قال ابن القيم : تنازع الصحابة في كثير من الاحكام ولكن لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال . أي المسائل التي تتعلق بالايان

قلنا إن المراد بقضاء الجماعة قوة التشريع القضائي في حياز جماعة لا فرد لان ذلك اسلم وابعد عن الخطأ وضمن للعدل وسببه ان الاحكام التي يرجع فيها الى الرأي والاجتهاد او القياس عند تعذر وجود النص او عند لزوم ترجيح رواية من الروايات تحتاج الى شروط قلما تتوفر في الفرد الواحد وإن توفرت له فربما لا يثبتر له نحري المصلحة وتطبيق الحكم عليها من كل وجه بحيث لا يخالفه فيه غيره ممن هو في طبقته من اهل العلم

اعتبروا ذلك في أئمة المذاهب المجتهدين فانه مع بذل كل واحد منهم في تقرير فروع المذهب واصوله منتهى الجهد في نحري صحيح الآثار والاخبار وتبع اصول الشريعة فقد اختلفوا في كثير من المسائل واختلف أتباعهم بعد ذلك اختلافهم ايضا فكان من ذلك اتقسام القضاء الاسلامي على نفسه حتي وجد في

٣٨ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المارچ ١ م ١٣)

بعض المصور اربعة قضاة لاربعة مذاهب في مصر واحد من الامصار الاسلاميه
هذا فضلا عن اختلاف فقهاء كل مذهب أيضا في المسألة الواحدة حتى أصيب
الافاء بما أصيب به القضاء من التشتت والاقسام واضطرب أمر العدالة أيما اضطراب
مع ان الاصل لهذه المذاهب واحد وهو الدين الاسلامي المبين
لهذه العلة الخطرة كان الصحابة الكرام لا يستنكفون عند الاستفتاء من أحدهم أن
يحيل بعضهم على بعض أو يستشير بعضهم بعضا في تقرير الحكم كما ثبت ذلك في
كتب السنة خوف الوقوع في خطأ يجر الى مظلمة أو اثم ولا سيما فيما يحتاج الى الاجتهاد
ما لم يستشر خاصة المسلمين

قلت فيما سبق ان الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم شرع لنا مراعاة المصلحة
ولو مع وجود النص واقتدى به الصحابة الكرام في العمل بهذه القاعدة وينا
لهذا أقول :

لما كانت الشرائع مبنية على درء المفاسد وجلب المصالح والشرعية الاسلامية
أخرى الشرائع برعاية هذين الامرين فقد سن الشارع ايقاف العمل بالنص مراعاة
للمصلحة ولكن عند الضرورة القصوى وثبوت المصلحة ولزومها على وجه لا يقبل
الشك في أن المصلحة التي تترتب على المدول عن النص اكبر من المصلحة التي
تترتب على العمل به واستن بسنته صحابته والخلفاء الراشدون من بعده فكان ذلك
شرعا أيضا فيه تيسير عظيم على المسلمين واليكم الدليل :

في حديث لابي داود أن رسول الله نهى أن تقطع الايدي في الفزوة . واتم
تعلون أن القاطم حد من حدود الله لم يستثن النص القرآني منه الفزاة لكن النبي
نهى عن اقامته في حال مخصوصة خشية أن ينشأ عنه مضرة وهي لحاق صاحبه بالعدو
وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم عدة اخبار أخرى من هذا القبيل لا محل لذكرها
هنا وهي مبسطة في كتب الحديث

وقد استن الصحابة بسنته وأوقفوا الحدود في أحوال مخصوصة تدعو اليها

الضرورة

(المار ج ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٣٩

جاء في كثير من كتب الاخبار ان عمر كتب الى الناس ألا لا يجلدن امير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب لثلاثه حية الكفار

وروى ابن القيم في إعلام الموقعين عن ابن حاطب بن أبي بلتعة ان غلة لايه سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتى بهم عمر فأقرأوا فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له ان غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقرأوا على انفسهم فقال عمر يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع ايديهم فلما ولي بهم ودهم عمر ثم قال أما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه حل له لقطعتم ايديهم وأيم الله إن لم افعل لا غرمك غرامة توجعك ثم قال يا مرزني بكم اريدت منك ناقتك؟ قال بأربع مئة قال عمر (اي لعبد الرحمن) اذهب فأعطه ثمان مئة

وغير هذا فقد أسقط عمر الحد في عام المجاعة للضرورة وتجاوز ابو بكر عن خالد بن الوليد في حادثة مالك بن نويرة اذ قتله دون تثبيت من اسلامه كتجاوز عنه رسول الله قبل ذلك بما صنعه بيني جذيمة لما أرسله داعيا لا محاربا فذهب اليهم وحاربهم وقتل وسي منهم فبرئ رسول الله من عمله الى الله ولم يؤاخذه به وما ذلك الا لحسن بلاء خالد في الحروب وخدمته العظيمة في الاسلام

وكذلك أسقط سعد بن أبي وقاص الحد عن أبي محجن في حرب القادسية في خبر مشهور طويل لا محل لذكره هنا وقال والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى للمسلمين ما أبلاهم

والشواهد على هذا من أعمال النبي وأصحابه كثيرة لا يتسع لها مقام الخطابة ولعل هذه القاعدة سوغت بعد لبعض الحكومات الاسلامية التجاوز عن الحدود والعقوبات البدنية كالسن بالسن والعين بالعين واستبدلت بها العقوبات الادبية كالحبس والتغريم مثلا لضرورة تغير الزمان أو لفشو المنكرات فشوا لم ينجم في تأديب مرتكبها الا حبس حريتهم في السجون أو غير ذلك من الدواعي والاسباب الزمانية ليس فيما ذكر غرض من مقام الشريعة أو مس لاصولها المقدسة مادام من اصولها

٤٠ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المارج ١ م ١٣)

وقواعدها أيضا العدول عن النص عند ثبوت المصلحة أو درء المفسدة بأقل ضرراً منها والشريعة كما تعلمون مبنية على المصلحة وقد سبق الله تعالى رسوله والائمة من بعده الى تحرير قاعدة مراعاة الاصلح وهو ما يسمونه النسخ وما هو بفسخ وانما هو تحرير حكم اقتضته مصلحة زمان وحال غير حكم آخر في زمان تقدمه وأحوال اقتضته كحكم جهاد المشركين من العرب في مبدأ امر الدعوة لحمايتهم وحماية المسلمين من اعدائهم واعدائها وفيه الاذن بقتلهم حتى يقولوا لا إله الا الله ثم تحرير حكم آخر بعهده أي بعد ان انتشرت الدعوة وقوي جماعة المسلمين وصاروا في مأمن من غائلة الضعف وهو حكم الدعوة بالتي هي احسن كما في قوله تعالى (ادْعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقوله (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وقوله (افأنت تكفر الناس حتى يكونوا مؤمنين) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة وكحكم النهي عن الصلاة في حال السكر في قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة واتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) وكان هذا في احوال اقتضته ثم جاء حكم التحريم بتاتا في احوال اقتضته ايضا

و بالجملة فان ملخص ما تلوته عليكم ينحصر كله في المقدمات الآتية :

(الاولى) ان القضاء في العصر الاول كان مرجعه نصوص الشريعة أي اصولها التي قررها الشارع واجتهاد الصحابة والتابعين فيما لم يرد به نص

(الثانية) ان الاحكام التي جاءت عن الشارع لم يكن في استطاعة فرد واحد حفظها او يعمد على الواحد الا حاطة بها فاحتيج في القضاء الى استشارة حفاظها

(الثالثة) ان الصحابة كانوا قد يختلفون في المسألة الواحدة اما في تطبيق النص او مسوغ الحكم اذا كان اجتهدا ثبوتا من وضع الشيء في محله جهد الامكان

(الرابعة) انهم كانوا يعدلون عن النص عند الضرورة الداعية وفي احوال مخصوصة تدعو اليها المصلحة التي بني عليها الشرع اقتداء بالشارع

(الخامسة) ان ووعهم وتقواهم وخوفهم من الوقوع في الاثم كل هذا كان يدعوهم الى عدم الانفراد بالحكم ومشاركة خيار المسلمين وعلمائهم في تطبيق الاحكام اذا كانت اجتهدية على القياس الصحيح او الرأي السالم من خطأ الفرد

(المناج ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٤١

هذه المقدمات تنتج نتيجتين مهمتين أحدهما أن القضاء في الاسلام كان قضاء الجماعة لا قضاء الفرد على نحو ما سبقت الإشارة إليه كثيرا

والثانية أن الشريعة الاسلامية بما تقرر فيها من قاعدتي الاجتهاد ورعاية المصلحة كانت من الشرائع التي توافق كل زمان ومكان وتميز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وإن خالف النص مع اعتبار هذه القاعدة شرعا أيضا خلافا لما يتقوله عليها المقولون من أنها شريعة ضعيفة توافق زمانا غير زماننا هذا ومكانا غير مكان الامم الراقية لهذا العهد فهي اذا صلت لاهل ذلك العصر لا تصلح لعصر تيسر شرائعه مع مقتضيات المدنية الحديثة وحاجتها سيرا تدريجيا في كل ما يقتضيه ترقى المجتمعات . ومنشأ قهولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها يساعد على ذلك ما يرونه من تعصب بعض علماء الشريعة التقليديين لما جاء في كتب الفروع دون الأصول وردم لكل ما لم يرد فيها من أسباب التيسير وإن ورد في أصول الشريعة وكلياتها مع ان في كتب الفروع من الاحكام التي لا تستند الى دليل قطعي مالا يمد ومبناها الاجتهاد أو الرأي والقياس ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهذه الاحكام على الرجوع الى أصل الشريعة مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والامة ومهما ترتب على ذلك من التهم الباطلة التي يرمينا بها الباحثون في طبائع الاجتماع

وحجة هؤلاء العلماء في هذا سد الذريعة أو خوف انتشار دعوى الاجتهاد اذا فتح بابه وتطرق الفساد الى الشريعة وهي حجة مقولة ومسلمة لا يخالفهم فيها عاقل لكن فيما لو صارت قوة التشريع أو الاجتهاد الى الافراد وأطلق العنان لكل قائل أن يقول هذا حكم الله ورسوله ولكل حاكم أن يحكم بما يرى ويقول

ومعاذ الله أن يريد هذه الفوضى للشريعة الاسلامية عاقل قط وإنما المراد أن ينظر في المسائل التي يقتضيها تغير الزمان وتجدد المصالح والحاجات على شرط عدم الوقوع في ذلك المحذور الذي يخشاه العلماء وذلك بأن تناط قوة التشريع أو الاجتهاد على المسائل الطارئة في كل عصر بجماعة من أهل العلم الواقفين على دقائق الكتاب

(المناج ١) (٦) (المجلد الثالث عشر)

٤٢ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المار ج ١ م ١٣)

والسنة والعارفين بمحاجات الامة ليقرروا لها الاحكام الموافقة لمقتضى الحال ثم تنال هذه الاحكام تصديق أهل الجبل والعقد فتصبح قانونا رسميا يتحكم العمل به في الحكومة الاسلامية التي هي في حاجة اليه لا يبدل عنه الي غيره من أقوال الفقهاء والعلماء وان مجتهدين فتضبط بهذا قوانين الشريعة ويؤمن عليها من تطرق الفساد ثم يكون من ذلك ان تحدد هذه القوانين تحديدا يقني عن الرجوع الى كتب الفقه التي تختلف في المسألة الواحدة اختلافا كثيرا يؤدي في كثير من الاحيان الى التهويش على القضاء ويكفي ان تكون تلك الكتب شروحا لقوانين الشريعة المعمول بها يومئذ يرجع اليها عند الضرورة والحاجة الى تفسير نصوص ذلك القانون كما هو الشأن في مجلة الاحكام العدلية المعمول عليها في محاكم الدولة العثمانية دون غيرها ولهذا البحث تمة سأتي عليها في الكلام على القضاء في دوره الثاني وها أنا ذا متكلم فيه :

* * *

قلت فيما سبق إن القضاء في الاسلام له دوران دور العمل بالاصول ودور العمل بالفروع وانما اخترت هذا التقسيم لاختصار الطريق أو اختصار البحث خوفا من تعب القارئ والسامع مع ان أدواره بعد دور التشريع الاول كثيرة جدا اذا اعتبرنا تقسيمه الى طبقات المفتين والمحدثين من الصحابة والتابعين ثم الائمة المجتهدين ومن بعدهم من طبقات الفقهاء والمقلدين من اتباع كل مذهب نعتبر ذلك بما قسموا اليه طبقات الحنفية مثلا فقد قالوا انهم ينقسمون الى ست طبقات : الطبقة الاولى طبقة المجتهدين في المذهب كأبي يوسف ومحمد وغيرهما من أصحاب أبي حنيفة القادرين على استخراج الاحكام من القواعد التي قررها الامام .

والثانية طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالخفاف والطحاوي والسرخسي والحلواني والبرزدوي وغيرهم وهم لا يقدرين على مخالفة امامهم في الفروع والاصول لكنهم يستنبطون الاحكام التي لا رواية فيها على حسب الاصول

(المراجع ١ م ١٣) قضاء القرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٤٣

والثالثة طبقة اصحاب التخرج القادرين على تفصيل قول مجمل وتكميل قول
محتمل من دون قدرة على الاجتهاد

والرابعة طبقة اصحاب الترجيح كالتدويري وصاحب الهداية القادرين على
تفصيل بعض الروايات على بعض بحسن الدراية

والخامسة طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والضعيف والمرجح
والسقيم كاصحاب المتون الاربعة المعتبرة

والسادسة من دونهم الذين لا يفرقون بين الفث والسمن والشمال واليمن
فلو تتبعنا الكلام على هذه الطبقات والادوار التي مرت على الشريعة بالتفصيل
لاحتاج ذلك الى كتاب مطول ورجل اعظم رسوخا مني في العلم ووقفا على تاريخ
القضاء لذا حصرت الكلام على القضاء من الوجهة الاجمالية في دورين واذ قد
مضى الكلام على الدور الاول فما انا اذا اكلم على الدور الثاني على قدر ما يمكنني
من الاختصار



لما اتسعت دائرة الفتح وانتشر الاسلام في الممالك القاصية وتفرق حفاظ
الشريعة ورواتها في الانحاء مع اتساع دائرة القضاء بازدياد وسائل الحضارة واستبعاد
العمران وتجدد الحوادث التي يقتضيها تشعب المعاملات وحال الامم الداخلة في
الاسلام من غير العرب وخيف لهذا من تشتت احكام الشريعة ودخول الفوضى
في القضاء والافناء احتيج بالضرورة الى امرين مهمين : الاول تدوين الشريعة في
الكتب . والثاني وضع قواعد للتفريع عن اصول الشريعة لتطبيق الحوادث التي
تحدث في احكام المعاملات على قوانين الشرع . وأول من تنبه للحاجة الى هذين
الامرين على ما اظن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الاموي وسدا للحاجة الاولى
امر الزهري من جلة التابعين وحفاظهم بتدوين الحديث في دفاتر وتوزيعها على
الامصار في أواخر القرن الاول ففعل كما هو مشهور معروف
أما الحاجة الثانية فقد شعر بها ولكن سدها بعده الائمة المجتهدون بدليل ماروي

عن الامام مالك بن أنس انه قال قال عمر بن عبد العزيز : يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور

أدرك هذا عمر بن عبد العزيز وأدركه الائمة المجتهدون من بعده مالك والشافعي وأبو حنيفة واحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المذاهب التي لم يبق لها أتباع لهذا العهد كداود الظاهري وغيره وكأئمة الشيعة الذين يعمل بمذاهبهم الى اليوم زيد بن علي وجعفر الصادق وغيرهم فلم يكتبوا بتدوين السنة في الدفاتر والكتب بل رأوا الحاجة تدعو الى البيان والتفصيل والتفريع والترتيب فعمدوا الى النظر في أصول الشريعة من الكتاب والسنة فاستخرجوا منها الاحكام ووسعوها ورتبوها ودونوها كل على أصول مذهبه وقواعده وأصول الاجتهاد المعروفة في كتب الاصول مما لا يسعني بسطه الآن وكلكم أعرف مني به فضبطوا بذلك قوانين الشرع بما بلغه اجتهادهم وأدى اليه جهدهم فكانت كتب كل مذهب شرعا يعمل به أتباعه الى اليوم

ولسنا بصدد اطراء هذا العمل الجليل الذي قام به أولئك الائمة الكبار وحسب هذا العمل أو هذه الخدمة التي خدموا بها الامة والشرع انها تصون منزلة الافناء والقضاء عن تناول كل من ادعى أن عنده مسكة من العلم بالدين والوقوف على السنة هذا لو أحسن العلماء بعد العمل بقوانين الفقه

نعم قد انتقد كثير من أئمة السلف ما صار اليه الحال بعد وضع كتب المذاهب من ترك أصول الشريعة والذهاب مع التقليد البحث لكن لم يكن هذا الانتقاد موجها الى الائمة المجتهدين الا فيما أخطأ فيه اجتهادهم وانما كان جل الانتقاد موجها الى من جاء بعدهم من الفقهاء والمقلدين لتنزيلهم كلام الائمة منزلة اصول الشريعة والعمل بأقوالهم ما أصاب منها وما أخطأ بلا بحث في الدليل مع أن الائمة انفسهم نهوا عن العمل بقول من أقوالهم دون معرفة دليله من أصول الشريعة كما تاملون

أراد الائمة المجتهدون أن تكون طريقتهم في التفريع مهيما يسير فيه العلماء في قياس الحوادث بعضها على بعض وردوها الى اصولها عند تجديد الحوادث سدا لحاجة المتقاضين . وأطالوا في الاستقصاء والبيان والتفريع كي لا يدعوا وجهاتهم كل أمرى

(المراجع ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٤٥

على أصول الشريعة من الكتاب والسنة ليعلم و يغير علم فيصير القضاء الى الفوضى والتشتت بعد انقراض طبقة حفاظ الشريعة من التابعين وتابعي التابعين واتساع دائرة الاسلام اتساعا يفقر معه المسلمون الى قوانين قرينة التناول من الفهم . لكن أساء من جاء بعدهم من اتباعهم من العلماء فهم الغاية فألقوا بأنفسهم في نفس الخطر الذي أراد اتقاء الأئمة المجتهدون اذ ساروا في سبيلين متباينين سبيل التضييق على أنفسهم الى ما لا يبلغ بهم أدنى الحد وسبيل التوسع الى ما يتجاوز كل حد .

حرموا في الاول على أنفسهم الاجتهاد ولو في المسائل التي تدعو اليها الضرورة والمصلحة العامة التي هي من قواعد ومقاصد الشرع الاسلامي فكان من ذلك ان أخرجوا الامة والجأوا بمض الحكومات الاسلامية لهذا العهد الى العمل ببعض القوانين المقررة عند الامم الاوربية خصوصا الجنائية والتجارية

وتوسعوا في الثاني حتي ملأوا بطون الكتب بالحواشي والشروح يوثي فيها بعدة أقوال في المسألة الواحدة ولو تافهة أو من قبيل تقدير المستحيل وكل هذه الاقوال تعتبر شرعا أو شريعة وتركوا العمل بالصحيح منها أو الاصح أو المقتى به أو المعول عليه الي رأي القضاة فكان من ذلك ان اطلقوا لقضاء الفرد العنان بلا شرط ولا قيد فوقعوا وأوقعونا فيما أراد دفعه الأئمة المجتهدون وحرم المسلمون من قضاء الجماعة الذي هو كفيل بالعدل وذلك منذ انقضاء العصر الاول الى اليوم

نعم إن اختلاف الاقوال في المسألة الواحدة وكثرة الحواشي والشروح على القوانين والشرائع موجودة عند كل أمة فاقانون الفرنسي مثلاً له شراح من المشرعين وأشهرهم دالوز وكاربانيه وسيريه وغيرهم كثيرون الا أن القضاء عند تلك الامم لما كان بيد الجماعة وقوة التشريع ليست من حق فرد من الافراد بل من حق الامة ونوابها فمستور العمل عندهم ما أجمعت على وضعه قوة التشريع وصادقت على قبوله الحكومة فصار قانونا للقضاء لا يعدل عنه الى تلك الحواشي والشروح وآراء المشرعين ويصار اليها الا لتفسير مبهم أو تطبيق الحوادث بعضها على بعض

لشريعة المسلمين أصول وكمليات كما قلنا في صدر الكلام تعتبر أساسا للتشريع ومم أن أحكامها مسلمة فقد كان العمل بها في عهد الصحابة بالشورى بين المتفقين

منهم هذا فيما نص منها على ما يرد عليهم من النوازل فما بالكم فيما أحتاج الى الاجتهاد والتشريع بالقياس على تلك الاصول أو الاستنباط منها وقد سمعتم فيما مر أنهم كانوا لا يحكمون حكما الا بعد استشارة خيار الامة وعلمائهم واقرارهم جميعا على ذلك الحكم حتى اعتبر بعض الأئمة المجتهدين بعض احكام الصحابة لقوتها شرعا أو أصلا من الاصول التي يبنى عليها التفريع سموه عمل الصحابة أو اجماعهم كاسبقت الاشارة اليه وكما ترون ذلك في كتب الاصول

إذا كان اجماع الصحابة على مسألة شرط في صحتها واعتبارها شرعا يلزمنا العمل به فقد لزم من هذا أمران :

الاول ان اجماع الجماعة على تقرير حكم في مسألة شرط في صحة ذلك الحكم واعتباره شرعا يلزمنا العمل به وهو ما فعله الام الاوربية في تقنين قوانينها لهذا العهد وقد وجد له اصل في الشرع الاسلامي فتركناه وأصبحنا نعبط الام الاوربية وقوانينها أو قضاء الجماعة عندها لهذا اليوم

والامر الثاني أن كل اقوال الفقهاء واختلافاتهم الواردة في كتب الفروع ليست بشرع الا من حيث اشتغالها على أحكام يرد بعضها الى أصول الشريعة إلا أنه غير متوفر فيها شرط التشريع الذي مر . وإناطة ترجيح قول دون آخر من حيث قر به من الاصل بشخص واحد لا يكسب هذا القول أو الحكم قوة التشريع يسمى شرعا أو قانونا وجب العمل به الا اذا اتفق عليه وقرره جمهور من المشرعين أو المرجحين وهذا ما أردته من وجوب بقاء الاجتهاد لكن لا ليتناوله من شاء فيما شاء . كلا بل ليناط بجماعة من علماء المسلمين تقرير الاحكام التي تدعو اليها المصلحة وتتجدد بتجدد الزمان

ولذا فان اجتهاد الجماعة كما انه لازم في الاصول فهو لازم في الفروع أيضا وذلك لجمع اقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ما أصاب من تلك الاقوال محجة الصواب والمصلحة ووافق اصول الشريعة من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح في كتاب بعينه يعتبر قانونا في المعاملات مجمعا عليه من العلماء ليعرف منه كل مسلم ماله من الحقوق وما عليه لانتقاده اقوال الفقهاء من خلاف لا آخر ومن قول

(النازح ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٤٧

لتقيضه فتصير به الى اهواء القضاة والمفتين يحكمون بما ترجح لديهم وبما يشتهون وليس اختلاف المذاهب بما نتم من أن يحكم للشافعي أو عليه بقول للحنفية أو المالكية بقول للشافعية مثلا اذ كل أتباع المذاهب أبناء دين واحد وكل أقوال كتب الفقهاء مأخذها واحد وهو الشرع والواقع يثبت أن أحكام المعاملات كانت في أكثر الممالك الاسلامية ولم تزل الى اليوم جارية في القضاء على مذهب الدولة الحاكمة وربما كان أكثر الرعية من أتباع مذهب غير مذهبها

ومع هذا فليس ثمة نكير من العلماء على أهل الدولة فلا سبيل لهم الى النكير على القائلين بلزوم جمع الأقوال الموافقة لتقتضى المصلحة والمصير من كتب المذاهب وجعلها قانونا جامعا في المعاملات للمسلمين بل هذا خير وسيلة لاصلاح القضاء وبما اغتفرت للفقهاء ما في تفريقهم وحدة الامة باسم التمسك للمذهب وكانت خاتمة اضطراب نظام القضاء في الاسلام

ليس اضطراب حبل القضاء في الاسلام بمجديد وليس الظلم والفساد الذي لاقاه المسلمون من حكامهم الظالمين وحكوماتهم الجائرة الا نتيجة توكلهم على ضعف القضاء خصوصا ما يتعلق منه بولاية المظالم لا نقص في الدين أو الشريعة بل لنقص في طرق التقنين والتنفيذ

إن الدين الذي ينزل على الظالمين صواعق الانذار وقرن الظلم بالشرك بالله تعالى ويأمر بإقامة ميزان العدل ويريد سعادة المجتمع الذي يدين به ما كان ظالما ولن يكون وإنما المسلمون أنفسهم يظلمون

ربما يطالبني كلكم أيها السادة بدليل على قولي ان اضطراب نظام القضاء وما نشأ عنه من الجور ليس بمجديد في الاسلام وهذا الطلب من حقكم بهذا الكلام وإليكم دليلا واحدا اكتفي به عن أدلة لو أحصيت لكانت كتابا ليس كالكتب مما تقرؤون

تعلمون أن أحفل المعصور الاسلامية بالعلماء والمفتين والفقهاء والمشرعين وأرقاها في سلم المدنية الاسلامية عصر هارون الرشيد العباسي اذ الشريعة في إبان

٤٨ قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام (المراجع ١ م ١٣)

زهوها والتفرع في مبدأ مجده والأئمة المجتهدون هم القائمون بالتشريع وإلى كتبهم ترجع الفتوى

في ذلك العصر الزاهر بمجد الاسلام وأعجاده العظام يرى أبو يوسف صاحب أبي حنيفة من ضعف القضاء وتسلبت أعمال الجور واضطراب نظام ولاية المظالم ما يلجئهم إلى وضع كتاب الخراج لأمير المؤمنين هارون الرشيد وليس فيه إلا آية أو حديث أو مثال من قضاء الصحابة أي كله من أصول تلك الشريعة الطاهرة يذكره فيه بالرجوع إلى قضاء الله ورسوله وأصحابه أو قضاء الجماعة المتين قائلا : ارجع يا أمير المؤمنين إلى هذه الأصول في سياسة الرعية وجباية الخراج وتوزيع الفيء ، أقعد يا أمير المؤمنين بنفسك للمظالم وإنصاف المحكوم من الحاكم ، أدرك الزراع فقد كاد يهلكهم الظلم فقد بلغتني عن عمالك أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد وأنهم يفعلون بهم ويفعلون مما لا يحل لهم بوجه من الوجوه ١.

هكذا كان الحال في عصر الرشيد وأئمة الشريعة أحياء يرزقون فما بالك بما جاء بعده من المصور التي صار فيها التشريع إلى عدد لا يحصى من المخرجين والمرجحين والفقهاء والمتبنين وكلهم يقول قولي أو قول فلان هو شريعة الله المقتضى بها والمعمل عليها وما هو إلا تفكك نظام القضاء وتشتت قوة الجماعة فلا حول ولا قوة إلا بالله !

والنتيجة أيها السادة أن ضمان العدالة الوحيد إنما هو قضاء الجماعة لا قضاء الفرد وأعني أن التشريع وحده غير كفيل بالعدل في القضاء إلا إذا أنيط كلاهما بالجماعة بالوضع والتنفيذ - ولا تظنوا أن هذا «المطر بش» الواقف أمامكم يريد شيئاً جديداً في الدين أو قلباً لكيان الأحكام مع أنه ليس من علماء الدين ولا أئمة المجتهدين

كلا فليس قضاء الجماعة بمجديد في الاسلام بل هو من عصر الصحابة وهم واضعوا أساسه المتين في الدور الأول للقضاء في الاسلام
أما الدور الثاني فالذي أذكره أن دولتين من دول الاسلام تنبها إليه وهولنا

(النازج ١ م ١٣) قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام ٤٩

عليه اولاهما دولة الامويين في الاندلس التي جطلت في القرن الثالث دوا في قُرطبة لشورى القضاء اعضاؤها من جلة العلماء يرجع اليهم في تقرير الاحكام والحق أقول اني لم أظفر بكثير بيان عن هذه الشورى لكن مارأيته عنها في ثنايا الكتب التاريخية يكفي للدلالة عليها فقد ورد ذكرها في نفع الطيب في ترجمة بعض العلماء كقوله كان فلان مشاوراً وطلب فلان الى الشورى فأبى وتقل الى ثقة عن كتاب من الاسف انه غير موجود بين يدي بل هو في مكتبة دمشق وهو كتاب الاحكام للقرطبي ورد فيه ذكر هذه الشورى بقوله: ان الشورى خالفت الامام مالكا في عدة أحكام أخذت فيها بقول أبي القاسم وفي هذا دليل كاف على انه كان لديهم سلطة في التشريع وان الدولة الاموية ثمة كانت مسددة الاعمال حتى قبيل وهنها وسقوطها حريصة على اجراء قوانين العدل بين رعيتها

أما الدولة الثانية التي تنبئت الى مثل ما تنبى اليه الامويون فهي الدولة العثمانية لهذا العهد فانها جمعت من علماء الامة وقهاؤها الموثوق بفضلهم وعلمهم جماعة ستمهم جمعية المجلة وذلك من بضع وثلاثين سنة انتخبوا من كتب المذهب الحنفي قانونا جامعا لاحكام المدنية وهو المعروف بمجلة الاحكام العدلية وأقر على العمل به أهل الحل والعقد فصار مرجع القضاء في المحاكم الى اليوم وستجتمع هذه الجمعية أيضا لادخال بعض الزيادة والتحرير عليه مما مست اليه الحاجة ولو بأخذ من غير المذهب الحنفي هذا مجمل تاريخ القضاء في الاسلام وما تخلله من الشوون بسطته لديكم مع رجائي ان تصفحوا عن كل خطأ بدر مني أو تردوه ولو سمح الوقت لاتي على شيء كثير من كيفية تقسيم ولاية القضاء وترتيبها ومحاسن الفقه الاسلامي وما انتقد عليه وانه لو أحسن العلماء العمل به لكان لنا منه قانون جامع لا حسن قوانين الام المدنية وربما أعود الى هذا البحث في فرصة أخرى ان شاء الله



٥٠ تصنيف كتب عصرية في الكلام (المنار ج ١ م ١٣)

✽ تصنيف كتب في الكلام ملائمة لحاجة العصر ✽

توحيد المذاهب الإسلامية

✽ إصلاح نظام التعليم في المدارس الدينية ✽

ألقى أستاذنا الفاضل موسى كاظم أفندي العضو في مجلس الأعيان ،
والاستاذ في مدرستي الحقوق والقضاة — محاضرة في هذه الموضوعات الثلاثة ،
فضبها عنه حضرة الأديب حسين أشرف بك أديب صاحب مجلة «صراط مستقيم»
التركية ، فرأيت أن أترجمها لقراء مجلة المنار النافعة بما يأتي :

كان الراسخون في العلم من أهل الصدر الأول للإسلام يكتفون بظاهر المعنى
الذي دل عليه الكتاب والسنة ، ويرجعون إلى صاحب الرسالة في كل ما يشبهون
به من المسائل على عهد . ولهذا لم تضطرهم الحاجة إلى وضع المصنفات ومراجعة
الأسفار

ثم ظهر الاختلاف على عهد التابعين ، فأروا أن يدونوا الكتب احتفاظاً بوحدة
الدين من وقوع التفرقة ، وبعدها عن مزالق الانشقاق وقندان القوة — إذا
تشتت آراء ذوي الرأي ، واختلت أنظار أهل النظر ، وهناك الطامة الكبرى ،
والخسران العظيم

فأخذوا يدونون العلم ، وأكثروا ما دونوا كان في علم الكلام ، لأنه هو منشأ
الخلاف ، فكان لذلك فائدة عظيمة

على أن الفلسفة لم تكن قد دخلت باديء بدء في المصنفات الأولى ، لأن
الامة لم تكن قد عاتتها بعد ، بل كانوا يبرهنون على مذاهبهم بنص من الكتاب

(المجلد ١ م ١٣) تصنيف كتب عصرية في الكلام ٥١

والسنة ، وهي طريقة علماء السلف ، ولم يكن ذلك العصر في حاجة الى أكثر من ذلك

ثم انتقلت علوم الفلسفة الى العربية ، فتشعبت الآراء طرائق ومذاهب ، وعرف أبناء هذه اللغة لأول مرة ماهية مذهب « الفلاسفة المشائين » وآراء « الفلاسفة الطبيعيين » ، وأخذوا يدخلون فيها ، ويقولون بقول أصحابها على قلة عددهم ، لولا أن المشائين تغلبوا على الطبيعيين من حيث اقبال الطالبين على كتبهم ، حتي اضطر علماء الدين الى مناهضتهم جميعا ، واتقاص ما لم من السلطة والنفوذ في قلوب الدارسين والمفكرين ، ومن الردود على المشائين والاشراقيين تألف علم الكلام بمتزجا بالفلسفة كما قضت الحاجة . لان علماء الكلام كانوا يدرسون كتب الفلاسفة أولا ، ثم يردون عليها ، الى أن كسدت سوق « الفلسفة الاشراقية » ، وكثر انتقاد اقوال المشائين فدالت دولتها ، واقرضت سلطتها ، ولم يبق لها ولي ولا نصير لم تنكسدت في هذه الحرب أوزارها ، حتي كان لعلماء الكلام من ظهور « الماديين » في هذا العصر ميدان آخر للنضال والكفاح ، فهو لاء يجب أن نشغل اليوم كما كان اسلافنا يشتغلون بالطبيعيين والمشاين والاشراقيين بالامس ورب قائل يقول : كيف يجوز لنا أن نزيد من عندنا في علم الكلام ما لم ينص عليه من قبلنا ؟ أوليس من الواجب علينا ان نتبع الاولين في ما قالوه ونسلك السبيل الذي اتبعوه ؟

فنجيبه بأن الفلاسفة الذين غني السابقون من المتكلمين بتزييف أقوالهم لم يبق في زماننا من يذهب الى صحة نحلهم ، واذا كانت براهين اسلافنا سلاحا قاطعاً لتلك المزايم ، فأين من يحاربنا لنصده بها ، وهذا الميدان خال منهم على حين نرى جهة أخرى غاصة بأعداء آخرين لا يعمل فيهم ذلك السلاح ، أو هو لا يقابل الاسلحة التي يستعملونها ، والحاجة ماسة الى اختراع سلاح آخر يصلح أن تقابلهم به .

لا يوجد اليوم علماء معروفون يقولون إن العالم ثلاث عشرة طبقة كرية الاولى تراب والثانية ماء والثالثة هواء والرابعة نار والافلاك بعد ذلك تسعة متواليات بعضها فوق

٥٢ توحيد المذاهب الاسلامية (المارج ١ م ١٣)

بعض وانها أولية أبدية في نوعها وفي جنسها ، وهي بهذا الاعتبار قديمة .
فاذا قلنا للفلاسفة اليوم : انكم كنتم تزعمون قبل عصور أن الارض وما عليها
قديم ولدينا حجاج تدحض مدعاكم وتبرهن على حدوث الارض وما عليها ، أجابونا
قائلين : كلا نحن لا نقول بقدم الارض ، بل نذهب إلى ما تذهبون اليه من أنها حادثة .
ومن منهم يصفى إلينا إذا قلنا له : إنك تقول برأي بطليموس من أن الافلاك
تسمة متداخلة أولية أبدية . وهو يرى أن هذا الفضاء لانهائي ، ولا نهاية لما فيه من
الاجرام ، وهي حادثة من حيث صورها ، ولا قديم فيها إلا اجزاؤها الفردة ، وربما
سخرنا عندما نبرهن له على فساد ما لا يعتد صحته .

فن الواجب علينا إذا اصلاح الدروس الكلامية وفقا لحاجة هذا العصر
وأهله ، ووضع مصنفات جديدة في دحض مذاهب هذه الازمان . وأن نعلم أن
الدين لا يناضل عنه اليوم بسلاح الامس ، لما بين المدوين من البون الشاسع
والفرق العظيم .

كان المشاؤون يعترفون بوجود الله تعالى وأنه العلة الاولى ، وواجب الوجود ،
ولكنهم كانوا يقولون : هو فاعل مضطر ، لفاعل مختار . أما الماديون في هذه الايام
فلا تنفعهم براهيننا على ذلك لانهم لا يسمون بوجود الله سبحانه . وكان الحكماء
يقولون : ان الله واحد حقيقي . وباطل وصفه بتلك الصفات المتعددة لانها تنافي
الوحدة . فهو قائم بذاته ، عالم بذاته ، قادر بذاته ، مرید بذاته ، والعلم عين الذات ،
والقدرة عين الذات ، إلى غير ذلك من الصفات الاخرى ، وبهذا قالت المعتزلة .
أما الماديون فهم يضحكون منا إذا برهننا لهم على أن الله عالم بعلمه ، قادر بقدرته
مرید بارادته : لاننا متخالفون معهم من حيث المبدأ الذي يجب علينا ان نقر بهم إلينا
فيه بوضع كتب حديثة تصلح لاقناعهم ، ولا يتسنى لنا ذلك إلا بدرس قنونهم ،
والإزامهم بأقوالهم وآرائهم .

وبعد فان الاسلام قدمني باختلافات ذهبت بأهله مذاهب كثيرة باد أكثرها
وبقي بعضها ، فالشافعية والحنبلية والمالكية يخالفوننا نحن معشر الحنفية بالانزوع وإن

(الناوچ ١ م ١٣) توحيء المذاهب الاسلاميه ٥٣

كانوا كلهم أهل سنة . فمن الواجب علينا ان لانزل هذا الاختلاف بمنزلة الخصومة فنعد الشافعي خصمنا ، بل الصواب أن نرى لنا مالنا ، ويرون لهم مالهم . وربما كان الحق في جانب أحد الطرفين مرة ، وفي الجانب الآخر تارة أخرى . لان المسألة مسألة اجتهاد ، والاجتهاد يبنى على الادلة الظنية التي يستدل بها كلا الطرفين ولا فرق في ذلك بينهما . ولذلك نصوا على ان الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد .

كانت هذه الحال مدعاة للتفرقة وانشقاق القوة ، ومباينة لما أمر الله به من الاعتصام بمجمل الاتحاد والاجتماع ، وما أشد ضرر التخاصم في المذاهب والفروع ؟ ... وفي الاسلام اليوم غير هذه المذاهب مذهب آخر وهو مذهب الشيعة ، والعداوة بينهم وبين السنيين شديدة ، وفي نظري ان هذا العدا أمر منكر يجب إزالته لينسئ للمسلمين أن يتحدوا وإلا التهمهم الغرب قبل مرور نصف عصر ، وكانت القاضية على المسلمين اجمعين .

اجل ! يجب علينا أن نعصم جميعا بمجمل الله ، وتتحدا مع كل قائل بوحدة الله ، ونبوة رسول الله ، ونحاول بعد ذلك تقويم الاود ، وإرجاع المنحرفة إلى أصلها ، ومجادلة أهل المذاهب الاخرى لا كما يجادل العدو العدو ، بل بالتي هي أحسن ، وذلك بأن يجتمع العلماء من كل فريق ، ويقول بعضهم لبعض : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم نتجنب ما تقوم الحجة على بطلانه ، ونعمل بما تبرهن الادلة على صحته . وفي يد كلا الفريقين كتاب الله يؤمنان به وبمن أنزله وبمن نزل عليه . وبهذا ينجو المسلمون مما منوا به من التفرقة والانشقاق ، وأنا الكفيل بأن المسلم لا يلبث أن يذعن للحق ولو هما بعد عنه .

واني أقص عليكم هنا تفاصيل مناظرة دارت بيني وبين أحد علماء الشيعة وكان متعصبا وعلى مكانة من الجد في وقت واحد . فبادرته أنا سائلا :

— أين هو موضع النزاع بيننا وبينكم ، وفيه ترابون من عقيدتنا ؟ فأجابني :

— الخلافة هي موضع النزاع . . . قلت له :

— إن هذه المسألة في رأيي ليست مما يستحق النزاع . قال :

— كلا بل هي ذات شأن عظيم لا ينكر فهي التي قضت على الاسلام ،

٥٤ توحيد المذاهب الإسلامية (المارچ ١٣م)

وشتت شمل المسلمين ، وقلبت بالدين رأسا على عقب . . . إن خليفة بعد النبي كان يجب أن يكون عليا . فأجبه :

— تلك دعوى لا نسلم بها ما لم يقر على صحتها برهان ساطع ، فما هو برهانكم على ذلك ؟

وهائنا عدد اشياء كثيرة كانت كلها واهية في نظري . وبعد أن أضفيت إليه كثيرا قلت له :

— ليس كل هذا مما يتألف منه دليل واحد ، لأن ما قلته لا يفيد إلا الظن ، وإن الظن لا يقي من الحق شيئا . أنت سردت على مسامعي قضية هي من المطالب اليقينية ، وأنى لثلاثها من مسائل الاعتقاد أن يبرهن عليه بشيء من الظن الذي ربما كان مقنعا في مسائل الفروع

فترك صاحبنا هذه السبيل واتجه منهاجا آخر تكلم فيه أكثر مما تكلم من قبل ولكن هذا أيضا كان واهيا . فقلت له حينئذ :

إني أدعي انه لم يؤثر عن النبي قول يستدل به على تعيين خليفة باسمه ، وبرهاني على ذلك أنه لو كان ثمة قول صريح في هذا الباب لما اختلف الصحابة في ذلك الامر ، وهم علي ما هم عليه من التمسك بسنته ، والخضوع لطاعته

أجل ! لم يصرح النبي بذلك لأن المهاجرين والانصار وقع بينهما على الخلافة اختلاف كان من نتيجته أن قال الانصار : « منأمر ومنكم أمير » فدحض الصديق ما طلبوا بحديث « الائمة من قريش » فأجابوه : إذا لم يبق بيننا مدعاة للخلاف بعد هذا . ومن ذلك تعلم أنه ليس ثمة صراحة قولية يستدل بها على تعيين خليفة بشخصه ، وإنما هم رجحوا الصديق لتولية الصلاة بالناس في مرض النبي ولم يرجحوا عليا ، وهذا ما أداهم اليه اجتهادهم .

وكان أبو بكر قد سعى عمر لولاية المهد قبل وفاته ، فلم يبق مجال للنزاع

وجعلها عمر شوري من بعده ، فوقع الاختيار على عثمان

ثم تولى منصب الخلافة من بعدهم علي

هذا كل ما في الامر ، فأين ما تذكره من أن هذه المسألة هي التي قضت

على الاسلام ، وقلبت الدين رأسا على عقب . . . هل سلك ابو بكر غير منهج الرسول ؟ كلا . انه لم يفعل ذلك باعترافكم . وهكذا فعل عمر ، وهو الذي افتتح الاقطار ، وعلى يده دخلت في الاسلام ، وأصبح المسلمون يحكمون بلادا فيها مئة مليون من النفوس . ومع كل ما كان له من النصر ، وللإسلام من المجد ، بقي في آخرته كما كان في أولاه يرضى على قدميه بجذائين يخرج منهما من بيت المال ، فاهو معنى « القضاء على الاسلام » حينئذ ؟

وهنا سكت صاحبنا ولم يفه ينت شقة ، فواصلت كلامي قائلا : نحن قدس هؤلاء لانهم لم يبعدوا عن خطة النبي قيد أنملة ، ومن الواجب على كل من في قلبه ذرة من إيمان أن ينظر اليهم بالنظر الذي تنظر به اليهم . فأجاني :
ان عليا كان على سعة من العلم والفضل ، وواقفا على سر الكتاب . قلت له :
ذلك بما لا ريب فيه . قال :

فلماذا اذا لم يجعلوه خليفة ؟ أجبت :

انت الآن تخرج عن الصدد . قد عدلت عن زعمك الاول من أن الاسلام قد قضى عليه ، ورحت تقول الآن : كان الاولى تولية علي لانه كان أعلم وأفضل . فقال لي :
انك يا أخي لاتدع لي مجالا للانصاح عن رأيي . اتني أقول : إن عليا واقف على سر الكتاب ولو كان اول خليفة في الاسلام لخدمه خدمات جلي ، ولتعالى الدين أكثر مما شهدنا . قلت له :

أنت غيرت دعواك . ومع ذلك فأني أقول لك : كان من الواجب عليه اذا كان الامر كذلك أن يبين تصوراتيه في اعلاء شأن الاسلام لمن تولى أمر الخلافة من قبله . وفي كل حال انه صار خليفة بعد ذلك ، وكان في وسعه أن يقوم بالخدمات التي تذكرها

وبعد أن أفضت البحث في هذا الباب أذعن مناظري للحق ورجع الى انصافه

ثم قال :

الحق أقول ان هذه المسألة مسألة سياسية ، لا مسألة دين ، وما هي الا وسيلة

جعلت في القديم لاحداث التفرقة بين فريق وفريق

قري من هذا أنه مهما كان بين المسلم والمسلم من الاختلاف ، يرجع احدهما الى الحق بعد ظهوره له ، لان المسلم منصف على كل حال
ويا ليت شعري كيف يجوز لنا أن نجعل الاختلاف في المذهب سببا للعداوة ونحن كلنا مسلمون ، في حين أن من المحظور على المسلم أن يجعل العداوة في قلبه حتى لغير المسلمين . حقا إن هذه حال قد سئمتها النفوس ، وتجت منها مضارا ، أزف الوقت الذي يجدر بنا فيه أن نعلم عن هذه البغضاء الشائنة ، ونؤسس فيما بيننا وبين جميع الفرق المسلمة وغير المسلمة وحدة صحيحة ، فيكون الاتحاد شعارنا في كل أين وآن . لان بالاتحاد نجاة ، وبالأعراض عنه اضمحلالاً
فمن الواجب علينا أن نضع كتابا في علم الكلام مؤسسة على مبادئ عدة . كأن ندرس مذاهب الفلاسفة المعاصرين ، ونجادل اصحابها ولكن « باتي هي أحسن » فهذا يزول الخلاف ، وتلك كانت خطة النبي (ص) في جدله

نحن نفكر اليوم في أمر اصلاح المدارس الدينية ، وحسبنا انكم قد درون هذا الاصلاح حق قدره . (الطلبة : تلك حقيقة ناصعة فترجوا ان تاتروا على الاصلاح) . انكم إذا كنتم على غير رأينا في لزوم هذا الاصلاح ، فليس في وسعنا ان نأتي بعمل ، أما اذا عرفتم وجوبه ، فهو أهم الاصلاحات في نظرنا .
يجب أن ندخل على نظام المدارس القديم خمسة من الفنون الحديثة أو أكثر ، وأن نعدل ذلك النظام تعديلا هاما ، فنبتل تدريس الحواشي والتقريرات بة ، ونعلم الطالبين المتون فقط ، ولكن تعلميا حقيقيا ، وتوسع كثيرا في درس اللغة والادبيات .
تري ماهي الحواشي والتقريرات ؟ هي انتقادات قواعد لغة لانعرفها بعد ، وأحربنا أن ندرس تلك اللغة نفسها قبل أن نقرأ انتقاد قواعدها .
ولعل قائلًا منكم يقول : نحن لا ندرس لغة العرب ، بل ندرس كتابا انشئت بلغة العرب ، وكان خيرا لنا لو ترجم القرآن الى التركية ، فندرسناه بلغتنا ، كما يدرس العرب القرآن واليهود التوراة بلغتيهم (١١١) .
فأجيب هذا القائل : إن ترجمة القرآن متوقفة على معرفة اللغة العربية معرفة تامة ،

(المناج ١ م ١٣) اصلاح التعليم في المدارس الدينية ٥٧

وهذا ماندعوا اليه الطلبة والعلماء وزيد منهم أن يكونوا ذوي وقوف تام على هذه اللغة ، ولا يكون هذا الا بدرس المتون أولا ، والتوسع بالاديات بعد ذلك جهد المستطاع . ولا بأس إذا رجع التلميذ بنفسه الى بعض الشروح عند مسيس الحاجة . ولست أدري كيف أعرض الطلبة قبلنا عن المتون وتعطفوا بهذه الشروح حتى اذا أتموها شرعوا بقراءة الحاشية فحاشية غيرها ثم بالتقارير فتقارير أخرى . وبعد أن يصرف الطالب أكثر من خمس سنين على هذا المنوال في كتاب واحد تمتعته فيه فلا تجده على شيء !! ولا يقدر أن يفهم معنى سطر واحد من الشعر العربي . ذلك لانه يدد وقته بمناقشة ماقاله العصام وما نبه اليه عبد الغفور ، وبوجه التفهم من قوله (فافهم) عند ما تعرض مسألة من المسائل .

فكروا يا هؤلاء قليلا : يجتهد عالم بتلخيص القواعد في متن يسهل به على الطلبة سبيل الوقوف على أصول أحد العلوم ، فيجيء غيره ينتقدهما كتبه وهو حر فيما يعمل . ثم يجي آخر فينتقد الانتقاد !

نحن لا نعترض عليهم لا نقادهم ، فليبدوا رأيهم في مسائل العلم ، والانتقاد في الحقيقة فلسفة العلوم . ولكن الذي استقر به هو تسابق الشيوخ إلى هذه الحواشي والتقارير مما يجادل به العصام وعبد الغفور ، يجعلونها كتبا مدرسية يقرأونها على الطلبة قبل أن يدرسوا أصول العلم نفسه !

اعترضوا علي ما أقول إذا كان لكم اعتراض !

فهم ! إن هذه الحواشي ليست مما يقرأ قبل درس قواعد اللغة ، وإنما مع ذلك لم توثق عبثا ، فإن أصحابها لاحظوا من تأليفها تربية قوة المناقشة والانتقاد في نفوس الطلبة فصنفوها . وما علينا الا أن نستعملها في الموضع الذي وضعوها له . ولقد كان من تحريفنا الأشياء عن مواضعها أننا ظللنا جاهلين اللغة العربية ، وإذا عرض لنا بيت من الشعر ، وقفنا أمامه باهتين ، نتنظر من عبد الغفور ومن العصام إمدادا فلا نرى من معين ! ثم نسعى لفهم البيت من كتب اللغة فيخفق سعيانا لأننا لم ندرس الادبيات العربية . وغاية الامر أن اصلاح المدارس يتوقف على درس متون العربية وكتب اللغة

(المناج ١) (٨) (المجلد الثالث عشر)

٥٨ اصلاح التعليم في المدارس الدينية (المارچ ١ م ١٣)

والادب . ثم يلتفت الطالب الى الفقه والتفسير والحديث ، تلك العلوم التي أهملناها ، لان الحواشي والتقريرات استغرقت منا كل وقت .

أتمني من الطلبة كلهم أن يجتمعوا في مكان واحد ، ويفكر وافيما يحوجهم لاصلاح مدارسهم ، ويستجلبوا برناجات المدارس الدينية في مصر ، فان المدارس الدينية في ذلك القطر قد أصلح نظامها ، فأثمر التعليم فيها ثمرات شبيهة . وبعد الاطلاع على تلك البرناجات يضعون لانفسهم برناجا يوافق حالهم وحال العصر معا . ويكفل لهم التقدم في اللغة العربية ، ثم يبحثون في أي الفنون الحديثة أكثر لزوما لهم .

أما أمر معاشكم فنحن نكفله لكم . لان لكم أوقافا كثيرة جداً استولت عليها الايدي ، وهي تغل لكل واحد منكم ثلاثة جنيهاً مشاهرة ، لو كان عددكم خمسة آلاف طالب . وعدا ذلك فان الامة لاتنساكم . وما عليكم إلا أن تبرهنوا على كفاءتكم ثم إنكم في حاجة إلى تعلم لغة أجنبية ، وليس في هذا ما يخالف الدين ، لانه ليس للدين لغة خاصة به

هذه اللغة العربية بنت ستة آلاف سنة ، والدين الاسلامي لم يكن إلا منذ آلاف عام وزيادة . وهو لاء مسلمو كريد لا يعرفون العربية ولا التركية ، ولقتهم لغة يونان ، فهل كان ذلك مانعا لاسلامهم . ونحن أنفسنا لغتنا التركية ، فهل تركناها لانهما ليست لغة القرآن التي انزل بها . وهل اليهود من العرب مسلمون لان لقتهم عربية ؟ كلاه . واذا كانت العربية لسان الدين ولا يجوز للمسلم أن يتكلم بغيرها ، فنحن آثمون لاننا لم نترك التركية . وهذا ما لا يسلم به عقل ولم يرد به نص .

فالتركية من هذا القبيل لافرق بينها وبين الفرنسية والانكليزية ، لان هذه اللغات الثلاث كلها غير العربية ، وعدا ذلك فنحن ندرس في جوامعنا باللغة التركية ، فلماذا لاندوس بالفرنسية أيضا ؟ ولماذا لاتعلم في مدارسنا لغة أجنبية ؟ فاذا قلتم : إن التركية لغة أمة اسلامية . اجيبكم : ان في الصين تركا أكثر منا عددا وهم كلهم مشركون . فتين من هذا أن اللغة شيء ، والدين شيء آخر ، وما التعصب في هذا الباب إلا الجهل الذي يسخر من صاحبه الناس اجمعون .

محّب الدين الخطيب بالقاهرة

(المار) بحث الي ادارة المجلة بهذه المقالة المترجمة وانا في الآستانة لاوى

(المجلد ١٣ م ١) إصلاح التعليم في المدارس الدينية ٥٩

وأبي في نشرها فلما قرأتها رجحت المقتضي على المانع وأذنت بنشرها ، أما المانع فهو انه قد سبق لنا في المنار بيان هذه المسائل الثلاث الأساسية التي بنيت عليها محاضرة الكاظم « تصنيف كتب في العقائد ملائمة لحال هذا العصر » وتوحيد المذاهب الإسلامية وإصلاح التعليم في المدارس الدينية » بل هي من مقاصد المنار التي أبدينا وأعدنا القول فيها كثيراً ، وكرره تكرر ، فقراء المنار لا يستفيدون بنشر ترجمة هذه المحاضرة شيئاً جديداً في هذه المسائل التي طرقت مسامعهم وجالت في مباحثها أبصارهم وعلم أكثرهم ما لقي شيخنا الأستاذ الإمام من العناء في محاولة إصلاح التعليم في الأزهر والمدارس التابعة له . وأما المقتضي فهو ما يستفيدة قارىء هذه المقالة من تشابه علل المسلمين وأمراضهم بل وحدتها ومن اتفاق آراء العقلاء وطلاب الإصلاح لها على اختلاف اللغات وتباعد الأفكار ، فموسى كاظم أفندي من علماء الآستانة قام بطلب في عهد الحرية ماسبقه إليه اخوانه من عقلاء العلماء في مصر والهند من غير تواطؤ بينه وبينهم ولا اطلاع منه على أقوالهم وأعمالهم ، فالمسلمون أمة واحدة مرضهم واحد وعلاجهم واحد وأطباؤهم هم العلماء والعقلاء العارفون بحال العصر الذين يصدق عليهم تعريف الفقيه في أقوال أحد أئمتهم « هو المفضل على شأنه العارف بأهل زمانه » قد احسن الكاظم في حثه طلاب الترك على تعلم أديان اللغة العربية لأن اللغة نفسها إنما تعرف بأديانها لا بفلسفة فنونها الصناعية وفي حثه إياهم على تعلم بعض لغات العلوم الدنيوية وحبته في هذه المسألة أقرب إلى القبول من حجة من يدعوا أمثال طلاب الأزهر إلى تعلم الفرنسية والانكليزية لأنه لا فرق بين التركية والفرنسية في نظر الدين وأما العربية فهي لغة الاسلام لا يمكن ان يفهم الاسلام حق فهمه ويكون من علمائه الا من يكون متقناً لها وترجمة القرآن ترجمة تقوم مقام الاصل العربي وتفتي عنه في الفهم والاستنباط والهداية هي متعذره كما بينا ذلك من قبل ، ويحتاج في فهم الاسلام الى فهم السنة ومعرفة طرق روايتها الخ الخ ولم يعط الكاظم هذه المسألة حقها من البيان والتحقيق وهي لم تكن موضوع محاضراته وإنما جاءت بالعرض وقد عرفت الرجل هنا وأرجو ان يكون من خير انصاري على ما أسعى اليه من الخير للمسلمين الذي يدخل فيه موضوع محاضراته

﴿ رسالة جمع النفائس ، لتحسين المدارس ﴾

يقول الذين أرسلوا إلينا هذه الرسالة ان السيد عثمان بن عبدالله بن عقيل كتبها ليقاوم بها نهضة المسلمين الحديثة لانشاء المدارس وطلبوا منا ان نبين لهم رأينا فيها كما ذكرنا ذلك في الجزء الحادي عشر . وقد تصفحنا معظم الرسالة فظهر لنا ان كاتبها قد كتب ما يعتقد انه النافع كما هو ظنتنا في سائر مكتوباته وانه لم يقصد تثبيط المسلمين عما هو نافع لهم ارضاء للحكام أو لغير الحكام ولكن الذين فهموا منها تثبيط المسلمين عما ينفعهم معذرون ولا يسوغ لنا ان نقول انهم متحاملون ،

الرسالة مؤلفة من ثلاثة فصول أولها في العلم والتعليم والمدرسة وبذل المال لهذا الامر ونتيجة العلم وقد جاء في ذلك فوائد ونصائح لا بأس بها وان كان فيها استدلال به احاديث ضعاف لا يحتاج بمثلها ولا نطيل في ذلك لما جرى عليه المؤلفون من التساهل في ايراد مثل هذه الاحاديث في فضائل الاعمال ولا سيما الغزالي رحمه الله تعالى ورأيت يذكر في هذا الفصل كثيره السلف الصالح ويحث على اتباعه ويعد من ذلك قراءة رسائل وكتب احمد بن زين وسالم بن سدير وعبدالله بن علوي الحداد وغيرهم ممن ليسوا من سلف الامة وهم أهل القرون الثلاثة على المشهور فكأنه يعد المتأخرين من أهل حضر موت وغيرهم من السلف ولا أدري ماهي مزيتهم على علماء هذا العصر في الهند ومصر وتونس . وعندى انه لا يعتد برأيه في الكتب النافعة ولا في طريقة التدريس . والفصل الثاني عشرة اسطر في الاتفاق على العمل وبذل المال له ولا بأس به واما الفصل الثالث فهو الذي يشبط همه من تلقاه بالقبول على علاته لانه ينفر المسلمين من كل ما عليه الاجانب في علومهم وأعمالهم الدنيوية التي بها صاروا اقوى وأعز من المسلمين حتى ان دولة صغيرة في شمال أوربا تستولي على أكثر من ثلاثين ألف ألف مسلم في جنوب آسيا وتتصرف فيهم تصرف السيد في عبيده الضعفاء ولو عملت الدولة العثمانية بمثل هذه الآراء لاستولى عليها الاجانب من زمن بعيد ولم تبق للمسلمين حكومة مستقلة

ومن بلايا تناقض هؤلاء المقلدين انهم يحرمون الاستدلال بالكتاب والسنة على من أهدأ له ويبيحونه لأنفسهم مع اعترافهم بأنه ليسوا من أهله ومن ذلك استدلالهم بحديث ابن عمر «من تشبه بقوم فهو منهم» على تحريم كل شيء نافع سبقتنا إليه أوربا والحديث لا يدل على ذلك على أن سنده ضعيف عند رواته وهم أهدأ وأوردوا الطبراني في الكبير، وتصحيح ابن حبان له لا يستدبه لتساهله في التصحيح ومعناه أن من تكلف أن يكون شبيها بقوم فإن التكليف يصير خلقا بعد تكرار العمل فيصير بذلك من القوم فيما تشبه بهم فيه فإن تشبه بهم في الكتب من أمور الصناعة صار صانعا مثلهم وإن تشبه بهم في الأعمال الحرة صار كواحد منهم في ذلك، وإن تشبه بهم في كل شيء صار مثلهم في كل شيء ولكنه إذا تشبه بهم في بعض الأزياء أو الطادات لا يصير منهم في أمور الصناعة أو الحرب أو الدين وإذا تشبه بهم في أعمال الدين فقط لا يصير منهم في السياسة أو الإدارة ولا في الصناعة والزراعة فالملعون في العراق موافقون لمسلمي مصر في الدين لا متشبهون بهم ليسوا مثلهم في اتقان الزراعة فن الجمل الفاضح أن يقال إن من تشبه بآخر في شيء يصير مثله في غيره، ويتفرع على هذا أننا نحن المسلمين إذا تشبهنا بالفرنجة في الأمور الحرة والسياسة والصحة وطرق الكسب فأننا لا نكون معدودين منهم في دينهم وإن في بلادنا من هم موافقون لهم في دينهم وكثير من عاداتهم وهم مع ذلك ليسوا مثلهم ولا يعدون منهم في الأمور السياسية والحرة مثلاً

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية والطياصة الكسروية (من لباس المجوس) . ولما أخبره سلمان الفارسي (رض) أن المجوس يحفرون الخنادق حول بلادهم إذا هاجها العدو أعجبه ذلك وأمر بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب وعمل فيه بنفسه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم . فهذا البيان يظهر خطأ السيد عثمان بن عقييل في منعه أن يكون في مدارس المسلمين شيء ما يشبه ما في مدارس الأجانب وخطأ ما أطالت به مجلة «دين ومعيشة» الروسية في بعض المسائل التي جعلت تكأنها فيها حديث «من تشبه بقوم فهو منهم» وهذه المدارس النظامية في مصر والآستانة والشام على طراز

المدارس الأجنبية ولم ينكر ذلك أحد من العلماء في هذه البلاد وما أظن أن السيد عثمان يعد نفسه في طبقة علماء الأزهر

وقد أورد السيد عثمان في هذا المقام حديثاً آخر وهو « من أحب قوماً حشر معهم » وهذا الحديث أوردته الحاكم في المستدرک بلا سند فلا يحتاج به ولو كان الرجل عالماً بالحديث لاورد ما صح بمعناه وهو حديث أنس عند الشيخين « المرء مع من أحب » وفي المعنى حديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال » رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وهو ضعيف ولكن حسنه الترمذي وأورده ابن الجوزي في الموضوعات . والمراد بالحب هنا ما يحمل المحب أن يتقرب الي من يحبه ويطيعه ويقتدي به ، وما كل نوع من أنواع الحب يحمل على ذلك وقد أباح تعالى للمسلم أن يتزوج باليهودية والنصرانية والزواج يحبب زوجه فلو كان معنى الحديث ان كل محب يكون مع من أحببه في الدنيا والآخرة لاستلزم اباحة نكاح الكفائية كافر المسلم الذي يتمتع بهذا المباح ولا ستلزم ذلك الترجيح بلامرجح فيما اذا أحب كل من هذين الزوجين الآخر كما هو الطالب وهو محال . وأبلغ من ذلك ان الله تعالى قال في خطاب المؤمنين مع اليهود الذين كانوا أشد الناس عداوة لهم (١١٩ : ٣) ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) فراجع تفسير الآية في ص ٨٨ ج ٤ تفسير من القرآن الحكيم

ومع هذا كله تقول ان الذين ينظمون مدارسهم على طريقة الاوربيين ويتعلمون علومهم لا يقتضي ذلك أن يحبهم بل نرى من المتعلمين في أوربا من هم أشد تعصبا من غيرهم وقد ذكرت هذا لبعض العثمانيين هنا (في الآستانة) فقال والمتعلمون منا على الطريقة الاوربية كذلك . فالسيد عثمان ليس مختبرا ولا عارفا بهذه المسائل وقد علمت ان الحديثين اللذين أوردتهما لا يدلان على مراده إن قلنا بأنه يحتاج بهما، وما كتبه ضار جدا وان أراد به النفع بحسب اجتهاده وما هو بأهل للاجتهاد ساعحه الله تعالى

ومن تهافته انه بعد أن استدلل بالحديثين على ما لا يدلان عليه لقلة بضاعته في العربية على كونها بضاعة مزجاة - شرع يحذر ترك قراءة كتب السلف الصالحين والاستعاضة

عنها بقراءة كتب التاريخ والجرائد، وذكر من مضارها انها تورث العقائد الفاسدة ودعوى الاجتهاد والاخذ من الكتاب والسنة . واذا جاز لمثله أن يأخذ من الكتاب والسنة فعل من يتمتع ذلك؟ واتي أقل شيئا من كلامه بنصه لتلايتهم بعض قراء المناراتنا نرد على عالم مؤلف أخطأ فكبرنا خطأه أو بالقنا في استهجانها . انه حصر عيوب المكاتب والمدارس في ثلاثة أشياء وذكر الاولين منها وهما في المعنى أمر واحد هو التشبه بالاجانب ثم قال مانصه وصورة رساله :

« واثالث من تلك الفواقر والخسائر ترك قراءة الكتب التي يقرؤها السلف الصالحون التي يكتبون منها العلوم النافعة وخشية الله والاعمال الصالحة وتبديل تلك الكتب بكتب التواريخ المختلفة والجرائد الممتعة التي يورث في اللسان اللقطة وفي القلب العقائد الفاسدة وفي الدين التهازل وتبع الرخص بل تورث دعوى الاجتهاد المشبه بخرط القتاد ودم التقليد بلا تقييد ودعوى استقلال الاخذ من السنة والقرآن مخالفة لما عليه المفسرون الاعيان فهاهي الاكراكية الثان تظن انها تسابق الفرسان ومضادا لسيرة السلف الصالحين بل استخفافا بهم بأنواع التنقيص وعنادا بالمكابرة والمغالطة بالأدلة الساقطة » اهـ

ولا يحسن القارئ أننا اخترنا هذه العبارة اختيارا الركاكتها وكثرة غلطها ووضوح دلالتها على تجرد صاحبها من الفنون العربية كلها بل جميع عباراته كذلك وهو مع هذا يستنبط الاحكام من الآيات والاحاديث فيحرم على الناس ما أحل الله لهم ويحل لهم ما حرم الله عليهم ولا سيما القول في الدين بغير علم ثم ينكر على العلماء الراسخين مثل هذا الاستدلال !!

هذا — واتا ننصح لأولئك الابرار الاخيار الذين ينشئون المدارس أن لا يلتفتوا الى هذه الرسالة ولا الى شيء من رسائل هذا الرجل وليختاروا لمدارسهم المعلمين الا كفء الذين يجمعون لهم بين علم الدين وما يلزم لهم من علوم الدنيا وان يكون لسان حالهم ومقالهم هو لسان القائلين « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب »

الفصل الخامس عشر (*)

(بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفته بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت الى يد هذا الامين بكل مائلك ولم يرعها أن الكرم المستعكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والمائل فان سيدتنا لم تكن - مع تدبيرها - بالشعيرة الكاظة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأياً يفاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستمدة ان تزداد كلاً كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأماناً ، فقصدته الايام ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احياناً تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة المومنين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين

(*) تابع لما في (ص ١١٥٤٩) من سيرة السيدة خديجة ، وقد كان كاتب هذه السيرة السيد عبد الحميد الزهراوي اضطر الى ارجاء الكتابة لاعماله السياسية الكثيرة في مجلس الامة

(المخرج ١ م ١٣) سيرة خديجة . بيت خديجة بعد الزواج ٦٥

الشكوك والاهام التي تنهى عن الاتفاق خشية الاملاق أما سيدتنا فكانت ترى إتفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العائلين من جملة المزايا العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعدَّ له ، وعابثا بمثل ما يبعث به أترابه، ولم يكن هذا الصبي يتجمل بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة، أبناء المجد الابدي، أبناء المجد السرمدي ، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة براهما من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبوهذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالا يتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبوطالب » ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو طياً الذي صار الامام أبا الائمة، وبدر سماء السيادة في الائمة

كانت تربية علي في البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من حسن الحظ فان الغيب كان يمدده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم، ومن أين كانت (المخرج ١) (٩) (المجلد الثالث عشر)

٩٦ سيرة خديجة . بيت خديجة بعد الزواج (المجلد ١ م ١٣)

تُعرف السيدة «خديجة» أنه لا يمشي لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعدّه الغيب ختنًا كريمًا وبملا صالحًا لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وأنّي يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جدا لعنة تصل بهذا البيت سيمدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الأرض دهوراً طويلة عالية المنار، عظيمة الشأن

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب إلا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم ! نعم ! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعمة يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لا هله نفوسا لا تعرف الاستثناء ، بل تراه من العار والشنار ، لاسيما اذا بنس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أوسع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السيد مسعداً للارواح، كما كان مسعداً للشباب ، وليرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهذا لا كرم الآداب وأعلاما فان علياً المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الاكبر الخلق ان يكون مثال القدس وزكاه النفس ، هو مجمع الممالي وملقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى فما كرم هذا البيت السيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الامين يمجده

(المار ج ١ م ١٣) سيرة خديجة - العمل الروحي ٦٧

عجلاً للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكرويين ، وفيه وجد القصاد
صدوراً رحية ، وأيدي مبسوطة ، ولديه خيم الوجود والسقاء ، كما خيم العدل
والوفاء ، ومنه اشرقت الآداب العالية ، والثرية الكاملة ، وماذا نرى من
بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى ؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشر فناء الآن على بحر كثيرة لججه ، صبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا
البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولا يسو
ثوب الهداية رأس ملهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله
في الجهر والتجوى

هنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه
وحده ورسمه ، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن يطهر كان من
دأبه أن يعبد بهض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «جرا» فها هو
هذا التعبد وكيف هو ، وما الذي ساق نفسه اليه ، وأي دين فرضه عليه ؟
هذا هو النبأ العظيم الذي تمسك بنا المقول المستقلة اذ تسمعه ولا
تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ، واذا أخذنا بإيضاحه نخشى أن
نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ، ولكن يقوى عزمنا على هذا الايضاح
ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء
أكثر ممن يسرد الاخبار سرداً

ان الاديان كلها رسمت أعمالاً اسمها عبادات ولكن بل السيدة

٦٨ سيرة خديجة - العمل الروحي (الملتوج ١ م ١٣)

«خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادة عبارة عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تمود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يزسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي توجه فيه روحه لقاء باري السموات والارض ومشرف مكة وسائق قوس العرب اذ ذاك اليها، ولم يكن مقيا أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لقتا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالطين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التاريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التبعيد الحمدي في « حراء » فكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبادة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نعرف بالروح ولو قليلا فلماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن نعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهي كل امرئ لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الدين بعدُ نظرم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة وأحد الأصول والأسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكمله هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يتبدى مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، اذ لا يراهم عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن اذا عزت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يحرمه الا قليل ثمن فيهم الخيرة لأسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قدمت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لج العقل في عمارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات انها لمن تأمل مراتب وصفوف ، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ملاح له من وجود ووطن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها الا بعدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عاداته الى

٧٠ سيرة خديجة - ما نحن ؟ (المار ج ١ م ١٣)

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا بقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحرار نظرم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحث كالباحثين ، وحررت كالحارثين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما ألقها على القلب من حيرة عقبا بما بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كائني وليد هذه الساعة ، لاني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الا كوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم أكن أشعر بلاثمائي ومؤلماتي ، فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأني كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواجر هذه الفراء ... ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يا فاطميا يا باريء يا مصور ولك الحمد ، أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المراثي ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه
هذا فأين ذهب ابصاري وسمي بين ذنك الابصار والسمع اللذين كانا
أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتياي الآن وأنا متذكر أن
هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفامن المرات فما هذا الاحتجاب ثم
الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا ؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب !
لعلها لا تسمعي ، أو لعلها لا اسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل ،
وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسي
وعن احتجابه ! ألا يهمني أن أحرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات
ورقها ثم يموت ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا أم أمره كأمر
هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزول أبدا ،
كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص
والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض . كلا سأسائل ! ثم كلا سأسائل !
رغمت رأسي الى السماء فألقيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى
الارض فألقيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أحرف له ساحلا وحدًا ، تارة فيفيض نورا ، وأخرى
يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم
الاسماء وضموها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جده وما هو بالهزل واللعب ،
وتتناغي فيه الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دما غيا أخذ بحظ
منها ولعل حسابها خائب !

يبي وبين كل ما هو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور
البازغ، فهل بزغ هذا النور لا عرفها أم لتعرفني وهل كانت لي أم كنت لها أم كنا
جميعاً لهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكنني أعرف يا نورانه لولاك لما عرفت شيئاً
سلام عليك أيها النور ! يا حامل لعملة المعرفة البناء، وشكراً لمن تسبح
أيها النور بجلاله ، وتهدينا إلى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست أدري كيف عرفت ، قد نقشت
السموات والأرض على عظمها في لوح لا يكاد يحس في دماغي، فهذا اليم
الذي يسبح الآن أمام غرفتي أصبح لاشيء عندي على اتساعه لانه محدود
وهذه الشمس العظيمة التي بدأت بزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في
عيني لاني احطت بها ، وهذه الأرض التي اراها كسرير لي قد تلاشت
في نظري اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي
لا ساحل له، ادركت في هذه الساعة أن هذه الأشياء كلها معا عظم حجمها
فهي كالصفر بالنسبة إلى ما لا يتناهي ، فلمت ان ليس فيما أحاط به حسي
ما يدفع عن فكري عطشته

راقني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما
نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟
تركت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تزين
كمرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها ، وانثيت الى هذه
اليامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها ، لكنني
استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق بخالط منها
الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال أنسي بهذه الخضر

الترنحات، والورق المتفنيات، حتى كدت أفقه حديثها، وأفسر تبيانها،
هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتني الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها
الهدى الى ماأنشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسي وفكري في
هذه العوالم المحدودة .. أياها ناجيت، وكلامها وعيت، فهي التي حدثتني
أنني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك، وفي هذه الذرة
الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد
من ألوف ألوف ألوف الالوف، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست
كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد
وضعها لا يزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول
الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه
الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قار في ذرات
قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه، وهذا المرأى الذي وقفت
عليه، حيرني من هذه الذرات أن تسم صور السموات والارض وصور
أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة
التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال
هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات
رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصاره

أني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسم الأشياء لا تخصي مع أنني انما أبني أن أعرف ما هو ذلك الشيء، الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً؟ ما هو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركاً حساساً يحيط بالسموات والأرض وبقصره يقدو هذا الجسم تراباً صامتاً صابراً تحت الأقدام؟ ما هي تلك الحالة المخصوصة؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها؟ هل هو في إحاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له؟ هل هو يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاماً آخر متى تغير نظامه هذا؟ وإن كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصيغة تنزولاً بأسرع من لمح البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخيل وجودها من الاستجابات؟ محارات بعد محارات، ولكن تلوح خلالها آيات، إذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا، وأتاحت لنا معرفتنا بالأمثال أن حقائق الأشياء محتجبة والظاهر إنما هو آثارها: فهذا النور الذي يملأ الفضاء لا نلم كنهه، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت، قصارانا أنا عرفنا سببها في هذا الفضاء، لا يسند لها عمد، ولا يعتريها سكون، وهي مع ذلك سائرة بنظام، ودائرة بإحكام، لا تخرج عن مستقراتها، ولا تحيد عن مجاريها، ولكن ما هو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام؟ سمو شيئاً من ذلك بالجازية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة؟

إن قصارى ما نعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحال فإذا حللناها اتبينا إلى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل هي الأمهات ثم هي تنتهي إلى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئاً!

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا، ولكن هذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترىنا الاشياء كما هي، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحدنا الا كصباح بسيط يشتمل ساعات وينتظي ساعات، وما هي الا مجتمعة مما يلعب بها اللاعبون ا على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه، فقد نرى واحداً وهو متعدد، وبسيطاً وهو متركب، وساكناً وهو متحرك، وصغيراً وهو كبير، حتى نصل الى ما هو صغير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتمدنا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية اياها مساعدة... بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعاً من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهارير. ولطنا سنهتدي الى ما يرىنا أصغر من تلك الصنائر. ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالآلات تبقى في مشاهداتنا بعينين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهما بلغت بها فما اكرمك يا عيني علي! أنت أنت كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريها لاني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ولا ترين شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت ان أقيس وجودي على وجود غيري... لا جرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسدي الذي تشاهده كما ان وراء النور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة المظلمة التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتوغلنا من فيض تخصيصه وجوده . . هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها منه صدرت ، وله العلم الازلي الابدی لان العلوم التي نهمدها من فضله آتت ، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نمجدها من لده اهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة الباريء المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حي

سيم بصير مريد وجمل حجاب هذا الهيكل البشري

أصبحت لا أرتاب في أن الحقيقة المظلمة هي التي تهدبنا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه ، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يبادل البطون ربما تخفى ، فاذا نطلب معرفة النفس تظهر آياتها المظلمة فسبحان الله من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روعي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها الا ايماناً بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لاني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ما يجمع هذه الروح . وقد حاولت كما يفعل بعضهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمع عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به

فما نفسنا او روحنا الا جاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهياكل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكواثر كلهم من اصل لا يرى ولم تفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا ضمنية ، والتجربة فيه هادية امينة ، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتعلم بها ان لها شؤوننا غريبة جدا فوق المعبود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحانه الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والمصبية نحن شاهدنا من هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن نفوسهم الرب وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جليلة غاية ما صنعوا انهم وضعوا البعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون ان هذه الاسماء تحمل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال ، وسمعنا سمعا لا يستطيع الرب معه البقاء ان اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تحليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم فيا عجبا ما هو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص ؟ حالة المنوم تنويعا مغنطيسيا هي من الآلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الوجود الصغير الكبير واستعدادده لخرق الحجب الكشيفة ، وقد القيود الحسية ، وعمله الاعمال المظيمة من غير حركة يديها او واسطة ياتها !

هذا حديث نفسي وخلاصة مظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو
ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصينا منه
عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد
المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان
وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق
ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها
وعلى نسبة شوقها تكون رتبها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم
المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور



كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ،
وكان شوقها اذكي شوق واقدس ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها
ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ، ولعلها
قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ؟
ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟
وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ،
ألا يمكن العلم بالناظر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها
الصوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت
الوجود الاعلى

ولعلها ينست من ان تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها
الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكل سمع لأنها تريد أن ترى وتسمع الذي إليه طارت شوقا ولذلك رأينا «محمدا» (صلى الله عليه وسلم) قد حبيت إليه الخلوة والافتراد ولا سيما اذ شارف الأربعين من سنه وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبسها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ولكن يصح لنا ان نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضراتك؟ كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك؟ اليك ايها المولى من مزيد حيي قياي وقعودي، وركوعي وسجودي، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك ياربني ا كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله، وانت انت مطالوبي وانت انت ذو الكرم والجلود !



على هذا المثال كانت حاله، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله، وقد فهم القريون من فهم الروح مقدار فوائده هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيمجبون وينكرون، وليتهم يتذكرون عن الناس وتدخلاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمانينة لديها، هذه المحن والتدخلات أقضي بالمعجب لعمري الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسمي وراء مبتني جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولا رباب الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

٨٠ سيرة خديجة - العمل الروحي (المار ج ١ م ١٣)

فسي أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها واتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في قلبها ولا تنف همهم أمام حزن في طريقها كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى، والحقيقة الكبرى، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوايح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له.. كانت قد عرفت أن هذا الفار في « حراء » الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية، والشوق الى الحضرات الربانية. فكانت تبارك على هذا الفار الفارغ وتسال الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤالها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بمجيد الناس وتمجياتهم ومحامدهم. ولم قد ترجمت قرائع الشعراء عن احتراماتهم وتكريمتهم لهذا الفار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور، قال قائل منهم:

سلامٌ عليك حراء الشير أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلامٌ فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت عليم

* *

لأنت يتيمة عقد الوطن فتيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقى الفؤاد السكن فذكراك ذكري عطاء كبير